وزارة التعليم العالي جامو و كشمير

مجلة التلميذ

مجلة عربية أدبية شهريةتصدر عن
وزارة التعليم العالي بجامووكشمير

مجلس التحرير
Editorial Board

الرئيس العام

الدكتور أصغر حسن ساموں (IAS)

نائب الرئيس العام

البروفيسور يسين أحمد شاه

مدير التحرير

البروفيسورمحمد مظفر حسين الندوي

رئيس التحرير

الدكتور معراج الدين الندوي

مساعدوه

الدكتورة تسمية مجي

الدكتور عناية الله واني الندوي

الدكتور فاروق أحمد مير القاسمي

الدكتورة نورأفشاں

الدكتور محمد ريحان الندوي

Advisory Board
الهيئة الاستشارية

البروفيسور محمد صلاح الدين العمري	رئيس قسم العربيةسابقا بجامعة عليكرة الإسلامية
البروفيسور كفيل أحمد القاسمي	عميد كلية الآداب سابقا بجامعة عليكرة الإسلامية
البروفيسور صلاح الدين تاك	رئيس قسم اللغة العربية بجامعة كشمير سرينجر
البروفيسور مسعود أنور علوي	رئيس قسم العربيةسابقا بجامعة عليكرة الإسلامية
البروفيسورمنظورأحمد خان	رئيس قسم اللغة العربيةسابقابجامعةسرينجر كشمير
الدكتور ريحان أختر القاسمي	الأستاذ المساعد بقسم علم *اللاهوت* السني عليكرة
البروفيسور عبدالرحمن واني	رئيس قسم اللغة العربيةسابقابجامعة سرينجر كشمير
البروفيسور شاد حسين	رئيس قسم اللغة العربية سابقابجامعة كشميرسرينجر
البروفيسورمحمد أيوب تاج الدين الندوي	رئيس قسم اللغة العربيةبالجامعة الملية الإسلامية
البروفيسور السيد جهانكير	جامعة اللغة الانجليزية و اللغات الأجنبية بحيدرآباد
البرو فيسور بيرزاده بشيرأحمد	رئيس قسم اللغة العربية سابقا بجامعة كشميرسرينجر
البروفيسور عبد الرحمن وار	رئيس معهد اللغة العربية بصورة سرينجر،كشمير
الدكتور محمد يوسف خان	الأستاذ المشارك بقسم العربية بجامعة عليكرة الإسلامية
الدكتور طارق أحمد آهنكر	الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية بجامعة كشمير
الدكتورة تسنيم كوثر	الأستاذة المشاركة بقسم العربية بجامعةعليكرة الإسلامية
د. زكرياء السرتي المغربي	المدير العام لشبكة ضياء للمؤتمرات والدراسات بالمغرب
د.قاضي عبدالرشيد الندوي	الباحث و الأكاديمي بالدوحة قطر
الدكتور شمس كمال أنجم	رئيس قسم اللغة العربية بجامعة باباغلام شاه بادشاه
د. تيسير محمد أحمد الزيادات	المحاضر بالجامعة السعودية الإلكترونية

الآراء المنشورة فى مجلة "التلميذ" تعبر عن رأى أصحابها وليست بالضرورة تعبر عن رأى المجلة

محتويات العدد

رسالة من الرئيس العام	الدكتور أصغر حسن سامون	03
دور المجلات الأدبية في تنمية الوعي الثقافي	رئيس التحرير	04
سمات الغزل في العصر الأموي و آفاقه	البروفيسور يسن أحمد شاه	07
مساهمة جلال الدين الغازي الكشميري في الأدب العربي	البروفيسور محمد مظفر حسين الندوي	15
نشأة علم البلاغة وتطوره عبر العصور	الدكتور شمس كمال أنجم	23
الأستاذ أحمد أمين صرح الثقافة الإسلامية.....	الدكتور معراج الدين الندوي	39
الشاعرالداعية الشيخ نور الدين ولي.... .	عبدالرشيد فاتح القاسمي	44
الاتجاهات والمناهج المعتمدة في تواريخ الآداب العربية	سيد علي حركامونبوري	54
النزعات اللغوية والنحوية والصرفية إشارة خاصة	الدكتور آزاد أحمد واني الندوي	68
واقع اللغة العربية في ضوء كتاب "رحلة القسطنطينية	أ. د. محمود حافظ عبد الرب مرزا	81
الشاعر الخليجي أحمد قنديل و شعره.....	الدكتور عبد الحميد لون	90
الدكتور ظفر الإسلام خان ومساهماته في ترويج	محمد سراج الإسلام	94
قراءة في كتاب "حياتي" للمفكر الإسلامي الفذ	عبد الحكيم	103

رسالة من الرئيس العام

الدكتور أصغر حسن ساموں

إنما العلم و الأدب من أهمّ الأمور الرائعة التـــي تتسبب في إيجاد السعـــادة و الـنور للبشر، فكلما تـقدم العـــلم تحسنت أوضاع الناس الصحيّة، والاقتصاديّة،والتعليميّة ،و غيرها، هذا عدا ما يحـــدثه العـــلم في نفس الإنـــسان من ثقة بالنفس، وتقوية للمهارات المختلفة، فـالعلم هـــو نبراس التقدم.

واجبنا نحو العلم

تشجيع الناس على التعلّم، وتحبيب العلم إليهم، ويكون ذلك من خلال المؤسسات المعنيّة، والأسرة الأدبية و الأدباء ، والمدرسة، وقادة الرأي، والنخب المجتمعيّة، وغيرهم من الحريصين على إحداث نهضةٍ علميّةٍ و أدبيةٍ و ثقافيةٍ،و فتح المنابر العلمية المختصة بصورة المجلات العلمية و الأدبية و الثقافية خاصة، واحترام كلّ ما يصدر عنها من بحوثٍ، ودراساتٍ، ومنشوراتٍ، ونتائجَ، فمثل هذه الخدمات هي النواة الحقيقيّة للتطوّر والارتقاء. و نشر المواد العلمية بطرق جذابة، ومسلّية، والابتعاد عن تقديمها للمتعلمين بالطرق الجامدة التقليديّة التي تنفرهم منها، وتتسبب لهم بحالة من الملل.

فنحن نعتقد بأن هذه المجلة العلمية المحكمة(مجلة التلميذ) تفيد العلم،و الأدب و العلماء و غيرهم من العلماء في آنٍ واحدٍ،ان شاءالله .

Dr. Asgar Hassan Samoon, I.A.S.
Principal Secretary to Govt.
Higher Education Department J& K
asgarsamoon@gmail.com

دور المجلات الأدبية في تنمية الوعي الثقافي

رئيس التحرير:

في الواقع إن المجلات العربية الأدبية و الثقافية و البحثية و العلمية و الحضارية قد لعبت دورا بارزا في تنمية الوعي الثقافي و العلمي و الأدبي في العالم البشري كله لا يستهان به في تاريخ الإنساني الثقافي و العلمي، فهناك العديد من المجلات التي ظهرت منذ بدايات القرن العشرين، واجهت فترات ازدهار وفترات اضمحلال ، و التي تركت أثرا لا نستطيع تجاهله على الثقافة بوجه عام، فنجد كثيرا من المجلات العربية و أول منها "الوقائع المصرية" و ثم "العربي" و "الجوانب" و "الأهرام" و "الهلال" و النفع العظيم لأهل هذا الإقليم" و "البعث الإسلامي" كان لكل منها توجهات فكرية ونقدية مختلفة، ومشروع ثقافي وفكري محدد الملامح،حيث كانت هذه المجلات فرصة عظيمة لدراسة أدب عصرها، وأفكاره، وأمزجته، وأساليبه، ونظرياته، مما يشكل نمطا لنشاط العصر و نموه و نضوجه، بل واضمحلاله أيضًا.

كما أنتم تعرفون إلى أقصى المعرفة بأن المجلات العربية الثقافية والأدبية والعلمية قد أدت أدوارا هامة لنشر اللغة العربية و الأفكار الصالحة و هي تعد في كل زمان و مكان مرآة صافية تعكس الحياة الأدبية و العلمية و الحضارية و الثقافية، و كما لعبت دورا بالغ الأهمية في بناء المستقبل وتوجيه الأجيال المتعاقبة للمشاركة في رفع راية الثقافة و الحفاظ على تراث الأمة لمصلحة البشرية و الحث على التمرد والنهوض، كما وسعت أساليب الكتابة والإنشاء وبسطت اللغة وخلصتها من التعقيد والرتابة.. وعلى الرغم من أهمية الدور الذي لعبته المجلات الأدبية من بداية ظهورها- حيث كان لها أثر ريادي في تنمية الوعي الثقافي والنقدي والتنويري، وتشكيل و بلورة التيارات والاتجاهات الأدبية والنقدية والثقافية والفكرية المختلفة، وتعميق القيم الثقافية والجمالية، ونشر الإبداعات الأدبية لكوكبة من طلائع الفكر والأدب العربي في مجال الشعر والقصة والمسرحية والبحث والنقد الأدبي.

و لو تسمحوا لي أن أتحدث عن كشمير و مساهمتها وإنجازاتها في اللغة العربية فأتحدث عن بحر لا ساحل له، كلما يغوص فيه باحث غواص فانه يستخرج حلية و يستكشف لؤلؤا لم يقف عليه من قبل، لان مساهمة أماثل كشمير و عباقرها في تطوير اللغة القرآنية الشريفة كثيرة و عظيمة لا تحصى و لا تعد.

و إن كشمير قد أنجبت كثيرا من العلماء الأفذاذ و الأدباء و الكتاب البارزين الذين سجلوا التاريخ في خدمة اللغة العربية سواء في مجال التعليم والتأليف والترجمة والشعر والأدب،

والقصة والمسرحية و اللغة و فقهها، و علوم النحو و الصرف و البلاغة. و فاضت أقلامهم بالمقالات العلمية والبحوث الفكرية والتحقيقية والقصص الدينية، و في شتى الفنون و العلوم باللغة العربية التي أذهلت الناس غربا وشرقا بما جاؤوا بالأعاجيب والنوادر و التحقيقات والبحوث العلمية القيمة، فلا نبالغ إذا قلنا إن أعمالهم الأدبية و العلمية قد تضاهي أعمال الأدباء العرب الكبار، مثل الشيخ مير السيد على الهمداني و الشيخ يعقوب الصرفي و الشيخ أحمد الواعظ و المفتي قوام الدين الكشميري كان من كبار الفقهاء الحنفية و ملّا محمد أمين الغاني الكشميري و الشيخ أحمد الترالي والعلامة رشيد الدين الكشميري الدهلوي و العلامة ثناء الله الكشميري ثم الأمرتسري و الشيخ عبدالرشيد الشوبياني و العلامة أنور شاه الكشميري و مولانا مختار الله ميرك شاه الأندرابي و ميرواعظ كشمير مولانا رسول شاه و مولانا محمد يوسف شاه أمير الوعاظ و مولانا ميرك شاه الكشميري و مولانا قاسم شاه البخاري و الشيخ غلام محي الدين مسكين سرائ بلي و و المفتي عبد الغني الأزهري و مير غلام رسول النازكي و مولانا محمد أمين الواجدي و الأستاذ منظور أحمد خان و الأستاذ محمد مظفر حسين الندوي و الأستاذ صلاح الدين تاك و الأستاذ عبد الرحمن وار والأستاذ شاد حسين الأندرابي و الأستاذ عبد الرحمان واني والشيخ محمد اسماعيل الأثري و آقا السيد محمد باقر الموسوي الكشميري و مولانا جلال الدين الغازي الكشميري و الأستاذ يسين أحمد شاه و الدكتور عبد اللطيف الكندي ، والأستاذ عناية الله واني الندوي والمفتي شفيق الرحمن القاسمي فصرف هؤلاء العلماء الكرام و الأدباء العظام تمام عنايتهم البالغة إلى كتاب الله وسنة رسوله و لغتهما الشريفة لأنهم ينظرون إليها نظر التقديس والتكريم حيث نزل بها القرآن الكريم وفيها الأحاديث النبوية الشريعة، و ان لم يقم أحد بإصدار مجلة باللغة العربية إلا بعد ظهور الصحافة الإنجليزية والفارسية والأردية والكشميرية.

فمن المعروف بأن كشمير من أجمل بقعة من بِقَاع العالم بمظاهرها الطبيعية المتنوعة و مع ذلك لها اهتمام بالغ باللغة العربية،و لقد أخذ الكشميريون العربية من الدعاة المسلمين، وازدهرت بإنشاء المدارس وجهود الوافدين من العلماء والبعثات العلمية، وإسهام المدارس النظامية وغيرها من العوامل التي ساعدت في نفوذ العربية وشيوعها .وعملت كلها في تطور العربية وحمايتها، كما فعلت في غير ها من البلدان.

و أما المجلات العربية و لن يختلف الاثنان في أن المجلة العلمية و الثقافية و الأدبية قد أدت أدوارا هامة منذ وجودها لحفظ أفكار أصحابها ونشرها. و يجدر القول بأن هذا الأمر لم يكن

منحصرا على البلدان العربية و الغربية بل امتد إلى جميع الكون الذي يعيش فيه الانسان، وهي بمثابة المفتاح الذي تفتح به الأبواب، ويغاص به في بحور الكتابة لإخراج اللؤلؤ والمرجان، للوصول إلى القمة.

وإن مجتمعنا المسلم ورث الإسلام كابرا عن كابر و أبا عن جد،فلأجل ذلك كان هناك شعور متنامي منذ زمن بأن يقوم أحد علماء العربية في وطننا كشمير بإصدار مجلة عربية لمحبي اللغة العربية ،فإن خطوتنا هذه تُجاه اصدار المجلة تبشرنا بمستقبل أدبي صحفي زاهر_ان شاءالله _و سيكون دورها في تطوير اللغة العربية بكشمير دورا بارزاو سعيا مشكورا و ستذكر في التاريخ من أهم العوامل التي نشرت لغة القرآن و السنة وحملتها إلى الناس بالجودة واللياقة،و هي تعد بمثابة الرسول الذي يبلغ الرسالة بكل صدق وأمانة.

إن نشر اللغة العربية في المجتمع الذي كان غير الناطقين بها يحتاج إلى تضافر الجهود من القائمين على التعليم والإعلام والثقافة والدبلوماسية لطلب المساعدة المالية و العلمية من البلدان العربية معا في الحقيقة، وتحتاج هذه الجهود أولا إلى لون من التخطيط والتنسيق يشترك فيه الجميع لوضع مبادرات يمكن أن تخص كل محب للغة العربية و المتكلم بها و المشتاق إليها .و كما يمكن أن تلعب الجامعات الحكومية دورا مهما في توفير سبل الدعم المناسبة لنشر اللغة العربية واعتماد أو اقتراح الآليات المناسبة لذلك الهدف.

و نحن جميعا نعلم أن التحدي الماثل أمامنا الآن هو مدى ما نبذله من جهد في تحقيق هذا الأمل السامي، لأننا بقدر ما نخلص في تعلم وإتقان ونشر لغتنا الدينية و الثقافية و الحضارية العربية بقدر ما ستكون هذه اللغة وسيلة للارتقاء بثقافتنا وحضارتنا في أرجاء العالم قاطبة، ولكن قبل هذا كله لابد أن نبدأ بأنفسنا ونمنع إطلاق الأسماء الأجنبية على مجمعاتنا ومحلاتنا التجارية، وأن نحظر على طلاب اللغة العربية و أساتذتها في المدارس الإسلامية و المعاهد الدينية و الجامعات و الكليات استخدام اللغات الأجنبية أو المحلية ، بل و أزيد على ذلك بأن يكف معلّمو المدارس الإسلامية و الجامعات عن إلقاء دروسهم و خطاباتهم ولقاءاتهم باللغات الأجنبية .

فنحن الآن بحاجة إلى أن نستفيد بهذه المجلة الأدبية و البحثية(مجلة التلميذ) و نسعى جاهدين لدعمها بتقديم أدب إبداعي مؤثر و توفير الوسائل لنشر لغة الإسلام و الدين. فنحن نرجو من حضرتكم العلماء و الأدباء و الأساتذة الكرام من الجامعات العصرية و المدارس الإسلامية المساعدة العلمية والأدبية والمالية و ارسال مقالاتكم الشيقة والانجازات الأدبية و آرائكم الثمينة.

سمات الغزل في العصر الأموي و آفاقه

(الإباحي و العذري)

البروفيسور يسين أحمد شاه[1]

الغزل الإسلامي بعد الثورة الإسلامية

نلاحظ أن المستشرقين يقولون عموما أن في صدر الإسلام في حدود ثلثين سنة ضعف الشعر العربي، لأن الميول الدينية والتقلبات السياسية حالت دون توليد العواطف الجديدة في الشعراء، وما زالوا يقلدون المتقدمين من شعراء الجاهلية، وهذا النوع من التفكير وهذا الموقف ليس بالجلمة صحيحا، وفي السطور الآتية سنلقي الضوء على هذه المسئلة:

الإسلام و الشعر:

بعض الناس يظنون أن الإسلام والشعر شيئان متغايران متضادان، وأما شعر التغزل فيظنون أنه لا يجوز إطلاقا في الإسلام، وقد استندوا لهذا الموقف إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي جاء فيها ذم الشعر والشعراء، مثلا نلاحظ في هذا الصدد قول الله سبحانه و تعالى في كلامه المجيد:

"وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ " (226). [الشعراء:]

وكذلك روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا فهو خير له من أن يمتلئ شعرا".

كأمثال هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يظهر بها أن الإسلام لم يرض من الشعر رضا كاملا، ولكن الحقيقة أن هذا الموقف اتخذه الإسلام بسبب الشعراء المعادين للإسلام في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام، إن الإسلام الذي يعطي درس الواقعية والتواضع كيف يرضى من الكلام الذي يستند إلى سوء النية والأسلوب الذي يعتمد على التطرف والعنف؟! بالنسبة للشعر كان هدف الإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم عدم تشجيع الشعراء المعادين للإسلام، ورد الفعل هذا كان فطريا ومتوقعا بالضبط. "إنه كان شديدا على الشعراء الذين يجرؤون على تسخير شعرهم للإساءة إلى الإسلام".

---

[1] المسجل بالجامعة العنقودية سرينجر كشمير

وفي ضوء الآيات والأحاديث المذكورة ليس من المعقول أن يُظن أن الإسلام ضد كل نوع من الشعر، إن الإسلام الذي هو نظام كامل للحياة يقوم بالتوجيه الكامل للحياة الإنسانية كلها في الثقافة والفكر والأدب وما إلى ذلك، فكيف يتجاهل عن عواطف الإنسان ورغباته وأحاسيسه وذوقه اللطيف؟! كيف يمكن أن يُفهم من نصوص القرآن والسنة أن الإسلام يسمح بالتكلم والكتابة في أسلوب النثر ولكن لا يسمح بالتكلم والكتابة بالكلام الموزون المقفى، يعني بالأسلوب الشعري، كيف تستطيع أن تتجاهل عن أن رسول الرحمة صلى الله عليه وسلم قد مدح الشعر و عرفه بأنه:

"إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه".

لعله استحسن بعض الأبيات من الشعر لذلك قال:

"إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة".

وفي هذا السياق تخطر بالبال تلك القصة التي ذُكر فيها أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل عائشة رضي الله عنها وقت توديع عروس: هل بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغني:

عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : كَانَتْ عِنْدَنَا يَتِيمَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ ، فَزَوَّجْنَاهَا رَجُلا مِنَ الأَنْصَارِ ، فَكُنْتُ فِيمَنْ أَهْدَاهَا إِلَى زَوْجِهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَا عَائِشَةُ ، الأَنْصَارُ أُنَاسٌ فِيهِمْ غَزَلٌ ، فَمَا قُلْتِ ؟ " ، قَالَتْ : دَعَوْنَا بِالْبَرَكَةِ ، ثُمَّ انْصَرَفُوا قَالَ : " أَفَلا قُلْتُمْ :

أَتَيْنَـاكُمْ أَتَيْنَـــاكُمْ فَحَيُّونَا نُحَـــيِّيكُمْ

وَلَوْلا الذَّهَبُ الأَحْمَرُ مَا حَـلَّتْ بِوَادِيكُمْ

وَلَوْلا الْحَبَّةُ السَّمْرَاءُ لَمْ تَسْمَنْ عَذَارِيكُمْ.[2]

في الحقيقة أن الإسلام الذي معناه الاستسلام الكامل هو ضد كل أنواع التطرف والغلو سواء كان هذا الغلو في العمل أم في الكلام، المتعة بلا هدف والعشوائية فيها والفجور وإظهار الذات... كل هذه الأشياء نجدها في الشعر الجاهلي بل هذا هو جوهر الشعر الجاهلي وخصيصته،هذا هو السبب الحقيقي الذي لأجله اضطر الإسلام إلى عدم التشجيع للشعر الجاهلي ومخالفته، إن بيان الحقيقة وإظهار صفاء النية سواء كان في النثر أم في الشعر كيف يمكن أن يكون الإسلام ضده؟!

[2] رواه البخاري و أحمد

إن تصوير العاطفة الصحيحة المؤثرة إذا كان الأفضل في الأسلوب الشعري فينبغي أن يكون الكلام في الأسلوب الشعري، لأن الإسلام ليس ضد البيان المؤثر، وإذا كان الشعر مفيدا في خلق العواطف الصحيحة فلماذا يمنع الإسلام منه؟! لأن الإسلام لا يعترف فحسب بل يشجع على تعزيز العواطف والمشاعر ثم إعمالها في الوجهة الصحيحة.

وقد بين ابن الرشيق القيرواني وعبد القادر الجرجاني موقفَ الإسلام من الشعر بيانا واضحا، وبعد النقاش الطويل في باب "في الرد على من يكره الشعر" استدل القيرواني أن الإسلام ليس ضد جنس الشعر، يقول: "فلو أن الشعرحرام أو مكروه ما اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم شعراء يثيبهم على الشعر ويأمرهم بعمله ويسمعه منهم.....فمن يتخذ الشعر أدبا وفكاهة وإقامة مروءة فلا جناح عليه".

وقد تعرض الجرجاني أيضا لهذه المسئلة في "فصل في الكلام على من زهد في رواية الشعروحفظه" واستنتج أنه لا مانع من الشعر في الإسلام وأنه توجد مساحة كاملة للشعر في الإسلام، يقول: "وأما التعلق بأحوال الشعر بأنهم قد ذموا في كتاب الله تعالى فلا أرى عاقلا يرضى به أن يجعله حجة في ذم الشعر وتهجينه، والمنع من حفظه وروايته والعلم بما فيه من بلاغة".

وفوق كل ذلك أنه إذا كان الإسلام ضد الشعر إطلاقا فلا يجرء مثل حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير وأبو ذؤيب الهذلي والنابغة الجعدي وغيرهم من الشعراء في صدر الإسلام وأمام الرسول صلى الله عليه وسلم على قرض وبيان الشعر، ولا يكونون في الطبقة الأولى من شعراء الدعوة الإسلامية كما قال عمر الطيب.

الإسلام والغزل:

والآن نحاول أن نستعرض المسئلة بأنه هل يجوز شعر التغزل إذا بقي الإنسان في حدود الإسلام، أم لا يجوز ذلك؟ يقال إن المرأة تلعب نصف الدور في حياة الرجل، وقد بين الإسلام أيضا دور المرأة في حياة الرجل ومكانتها وقد قرر القرآن الكريم أن الرجل والمرأة جزءان لا يتجزءآ، كلاهما في احتياج إلى آخر: "هن لباس لكم وأنتم لباس لهن".

وخلاصة القول أن حياة الرجل ناقصة بدون المرأة، والرجل مفطور على إظهار حبه للمرأة وتحسينه لها، والمشاعر الفطرية لا يمكن أن تكون منافية لدين الفطرة، وتجازب الرجل والمرأة فيما

بينهما حقيقة لا تنكر، ولا يمكن أن يكون الإسلام ضد أي حقيقة، وحب الرجل للمرأة لا يمنعه الإسلام، يقول ابن القيم الجوزية في هذا السياق:

"إن الله سبحانه وتعالى لم يأمر العبد بصرف قلبه عن هوى النساء جملة".

وهنا نرى من المناسب ذكر موقف الشيخ على الطنطاوي الذي كتبه مجيبا على نقد أحد المشايخ عليه حينما نقده بأن مثل الشيخ الطنطاوي كيف تكلم عن موضوع الحب وهو شيخ وقاض ولا يليق بالشيوخ والقضاة أن يتكلموا في الحب والغزل والشعر الذي ليس في الشريعة شيء! فكتب الشيخ الطنطاوي مقالا بعنوان "من غزل الفقهاء" وكتب فيه مخاطبا له:

إن الإسلام لم يمنع شرعا من الشعر، أما قمت مرة في السحر فأحسست نسيم الليل الناعس وسكونه الناطق، وجماله الفاتن فشعرت بعاطفة لا عهد لك بمثلها، ولا طاقة لك على وصفها؟ أما سمعت مرة في صفاء الليل نغمة عذبة من مغن حاذق قد خرجت من قلبه، فهزت منك وتر القلب ومسّت حبة الفؤاد؟! أما خلوت مرة بنفسك تفكر في الماضي فتذكر أفراحه وأتراحه، وإخوانا كانوا زينة الحياة فطواهم الثرى، وعهدا كان ربيع العمرفتصرم الربيع، فوجدت فراغا في نفسك، فتلفت تفتش عن هذا الماضي الذي ذهب ولن يعود؟ أما قرأت مرة قصة من قصص الحب، أو خبرا من أخبار البطولة فأحسست بمثل النار تمشي في أعصابك وبمثل جناح الطير يخفق في صدرك؟ أما رأيت في الحياة مشاهد البؤس؟ أما أبصرت في الكون روائع الجمال؟! فمن هوالذي يصور مشاعرك هذه؟ من الذي يصف لذائذك النفسية وآمالك وبؤسك ونعماءك؟ لن يصورها اللغويون ولا الفقهاء ولا المحدثون ولا الأطباء ولا المهندسون.....إنهم الشعراء يا سيدي وذلك هو الشعر....![3]

أين وجدت حرمة الشعر أو مذمته من حيث هو كلام جميل يصف شعورا نبيلا؟ إنما يقبح إذا اشتمل على الباطل، كما يقبح كل كلام يشتمل عليه.

[3] فكر و مباحث ، للشيخ على الطنطاوي صـ31-41

أو ما سمعت بأن النبي صلى الله عليه وسلم أصغى إلى كعب وهو ينشد في قصيدته التي يتغزل فيها بسعاد...وأن ابن عباس كان يصغي إلى إمام الغزليين عمر بن أبي ربيعة، وأن الحسن البصري كان يشهد في مجلس وعظه بقول الشاعر، وأن سعيد بن المسيب كان يسمع مغنيا يغني....ليس هذا فحسب بل كان أئمة الدين وأعلام الهدى مثل الإمام مالك وعبيد الله بن عبد الله وأسعد بن يحي السنجاري وشيخ الشهرزوري ظهير الدين الأهوازيوأبو قاسم القشيريوالقاضي عبد الوهاب المالكي والقاضي الجرجاني والقاضي سوار بن عبد الله وقاضي القضاة ابن خلكان محمد بن داؤد الظاهري وأبو الفضل الحصكفي...كل هؤلاء من أئمة الدين وأعلام الهدى كانوا يقرضون شعر الغزل ويرتبونه"[4].

واستفسر الطنطاوي من ناقده الفاضل: "من أين عرفت أن العلماء قد ترفعوا عن الشعر، والكتب مملوءة بالجيد من أشعارهم في الحب والغزل و وصف النساء؟!". ومع هذا التوضيح نصح الطنطاوي أنه لابد للعلماء أن يراجعوا من جديد موقفهم من الغزل والشعر. وقد ادعى الطنطاوي أنه إذا استفيد من المراجع والمصادر فيمكن أن يجمع مجلد كبير لشعر الغزل، فالقول بأن الفقهاء ضد الغزل ليس من الإنصاف بشيء.

يُستنتج من هذا أنه يجوز إظهار المشاعر الطيبة عن المرأة بأسلوب جدّي ومراعيا حدود الأخلاق والثقافة، وبتعبير آخر أنه " يوجد مجال واسع في الأدب الإسلامي للتغزل العفيف الطاهر، المؤمن إذا أراد أن يعبر عن مشاعر الحب الطاهر فلعل عنده وسيلة واحدة وهي "الغزل العذري" إن عمر رضا كحالة أشار إلى هذه الحقيقة حينما قرر أن الغزل العذري ثمرة التقاء العناصرين: "أولهما العاطفة الدينية، والثاني: الميول الجنسية في نفس المؤمن الذي حسن إيمانه وقوي يقينه"[5].

إذا لم يكن في الإسلام أي مساغ لبيان عواطف الحب فلا يجرؤ أحد من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم على قرض الشعر، فشاعر القصيدة الشهيرة "بانت سعاد" كعب بن زهير كان هدفه الحقيقي مدحَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن القصيدة تبدأ بأبيات الغزل، فإذا كان

---

[4] أيضا

[5] أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، عمر رضا كحالة بيروت 1991

الإسلام ضد شعر الغزل فلا يجرؤ كعب بن زهير على أن يبدأ هذه القصيدة بأبيات الغزل ولو كان مضطرا إلى ذلك من حيث الفن ولأجل الضرورة الشعرية!. لأن هذه القصيدة كانت كتبت في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فكان لابد أن يسمعها، يقول:

بانَت سُعادُ فَقَلبي اليَومَ مَتبولُ مُتَيَّــمٌ إِثـرَها لـــــم يُفدَ مَكبولُ

وَما سُعادُ غَداةَ البَينِ إِذ رَحَلوا إِلّا أَغَنُّ غَضيضُ الطَرفِ مَكــحولُ

هَيفاءُ مُقبِلَةً عَجزاءُ مُدبـــــرَةً لا يُشتَـــكى قِـــصَرٌ مِنها وَلا طولُ

الحقيقة أن موقف الإسلام من الشعر والأدب أنه لابد أن يكون ذا هدف نبيل وشرف عظيم، وهذه القاعدة تنطبق على الغزل أيضا، لذلك لم ينطفئ سراج الغزل كاملا بعد مجيء الإسلام بل تأثر هذا الصنف بالإسلام كغيره من أصناف الشعر واضطر إلى تغيير بعض الأشياء بمقتضى الإسلام، غيّر أسلوبه واتخذ موقف الوقار والجدية، وفضلا عن السكوت فضّلَ الكلام عن التلال وذكر اللقاءات والوعود التي لا توفَ والتي لا يوجد أي سبيل لإتمامها". وقد أعطى الرجلُ الأهمية اللائقة والمكانة المناسبة للمرأة في ضوء أوامر الإسلام وتحت ظلال الحياة الإسلامية، فصار موضوع الغزل روح المحبوب بدلا من جسد المرأة، وتم إغلاق جميع الأبواب التي كانت تفتح للمرأة لتُعامل كسلعة للبيع والشراء، وبدأ شاعر الغزل الإسلامي يظن أن المرأة جزء لذاته لا يبقى أي شيء جميلا بدونها في الحياة، لقد جعل الإسلام مشاعر شاعر الغزل عفيفة وقوية، لا يعيش هو بسبب الحب كما كان يعيش شاعر الجاهلية بل أوقف هو نفسه للحب، وقد جعل دين الإسلام الحب والعفة للشاعر شيئا واحدا، يعني جعل الإسلام العفاف الشرط الأول للحب ولإظهاره في الأسلوب الشعري وهو التغزل.

التغزل في صدر الإسلام:

إن الناقدين والمؤرخين عمومايعدّون الغزل العذري في زمرة الغزل الإسلامي، ومن هذه الناحية يصير القدر الكثير من الغزل الإسلامي صحيحا، وسنذكر هذا الصنف من الشعر بشيء من التفصيل في مقالة أخرى – ان شاء الله- وهنا نحاول أن نرى صورة "التغزل في صدر الإسلام" يعني شعر الغزل أيام النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين.

قبل كل شيء لابد أن نعرف أن في صدر الإسلام كان شعر المسلمين عموما في حالة ضعف، أما التغزل فلأن كبار الصحابة كانوا مشغولين في أمور مهمة من جهاد و رفع راية الحق، لذلك ما توفر لهم الوقت الكافي للغزل، فبهذا يصح قول محمد سامي الدهان أن "في صدر الإسلام كان الغزل

العربي في حالة النوم". ولكن لا يعني هذا أنه ما كان هناك أي شيء من نوع الغزل الإسلامي.

والملاحظ أن في صدر الإسلام لم يقبل كل جزيرة العرب التعاليمَ الإسلامية بقلوب خالصة، ولو لم يكن ذلك لما ارتد بعض الناس عن الإسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة، من المحتمل أن يكون هناك في زمن النبي صلى الله عليه وسلم في حدود مناطق المملكة الإسلامية عشرات من الشعراء المشركين وغير المسلمين الذين كانوا لم يزالوا متمسكين بالتقاليد الشعرية لشعراء الجاهلية المتقدمين ولكن شعرهم لا يعد في الأدب الإسلامي، والذي أسلم من هؤلاء الشعراء ترك عدد منهم الشعر بعد الإسلام، مثلا صاحب المعلقة لبيد بن ربيعة الذي ترك الشعر وانجذب إلى القرآن الكريم.وعدد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مثل كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت صرفوا قدراتهم الشعرية كلها إلى الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم والدفاع عن الإسلام وإلى مواجهة الحملات الشعرية من الكفار لذلك ما أمكن لهم أن يتفرغوا لشعر التغزل، وكان فيهم بعض الشعراء أيضا الذين تشرفوا بالإسلام ولكن لم يتقيدوا بضوابط الشعر الإسلامي، ولذلك نرى في شعرهم آثار الشعر الجاهلي، مثل كعب بن زهير وأبي محجن الثقفي وحميد بن ثور الهلالي وغيرهم من الشعراء، وكنموذج يمكن أن نرى شعر التغزل لكعب بن زهير، قلما نرى فيه أثر الروح الإسلامي، في قصيدته الشهيرة "بانت سعاد" نراه يصور المرأة بأسلوب شعراء الجاهلية، يذكر قامتها وتناسبها الجسدي وعوارضها وتبسمها وما إلى ذلك، ولولم يكن فيها مدح النبي الكريم والدفاع عن الإسلام لعل ما أنساها الرواة المسلمين ومحوها عن أذهانهم وصدورهم مثل القصائد الجاهلية، فيما يلي بيتان من قصيدة "بانت سعاد" تبدأ القصيدة بهما ونرى فيهما تصوير جسد الحبيب كما كان الأسلوب الجاهلي:

هَيفاءُ مُقبِلَةً عَجزاءُ مُدبِرَةً لا يُشتَكى قِصَرٌ مِنها وَلا طولُ

تَجلو عَوارِضَ ذي ظَلَمٍ إِذا اِبتَسَمَت كَأَنَّهُ مُنهَلٌ بِالراحِ مَعلولُ

المصادر و المراجع

1- تاريخ الشعوب الإسلامية ، لـ كارل بروكلمان
تعريب نبيه أمين فارس و منير البعلبكي،ط.11،دار العلم بيروت 1988

2- طبقالت الشعر و الشعراء
ابن قتيبة ، عالم الكتب ، بيروت 1282 هـ

3- كتاب العمدة في صناعة الشعر و نقده
ابن الرشيق ، مطبعة أمين همدية بمصر 1925 م

4- كتاب الصناعتين
أبو هلال حسن العسكري،تحقيق على و محمد ،ط 2 ، دار الفكر العربي 1971

5- فنون الأدب العربي
محمد سامي الدهان ج 1،دار المعارف ،القاهرة 1981م

6- المنجد
لوئيس معلوف، (اردو) تاج پبليشرز دهلى

7- الأسلوب
أحمد الشائب، الطبعة الثامنة ،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة 1990م

8- خصائص الشعر الحديث
الدكتورة نعمات فؤاد ،دار الفكر العربي 1980 م

9- حديث الأربعاء
الدكتور طه حسين ،ج2 – الطبعة 13، دار المعارف القاهرة (طبع أولا 1925)

10- فنون الأدب العربي
محمد سامي الدهان ،دار المعارف ،القاهرة 1981م

11- المقارنة بين الشعر الأموي و العباسي في العصر الأول
عزيز فهمي ،دار المعارف ،القاهرة 1979

12- تطور الغزل بين الجاهلية و الإسلام
شكري فيصل ،دار العلم للملايين ، بيروت 1959 م

13- جديد عربي شاعري
نسيمه فاروقي ، اسلامك بك سنتر لكهنؤ1977 م

14- المعلقات السبع

1- Arabic Literature an introduction , H.A.R Gibb ,Oxford University Press, London ,1962

2- The Cambridge History of Islam, P.M Holt, Cambridge University Press 1970

3- A History of Arabic Literature , Ummayad Period , Fariq K.A "Delhi 1977

4- Translation of ancient Arabian Poetry" C.J Lyall, London 1930

مساهمة جلال الدين الغازي الكشميري في الأدب العربي

(1926- 1992)

البروفيسور مظفرحسين الندوي[6]

أضحى التعصب المذهبي عائقا عن الاعتراف بشخصيات عظام لهم شأن في العلم و الأدب أي شأن و تضحيات و مساع جليلة عظيمة فلا ينالون حظوة من قبل المؤرخين و العلماء لاختلاف أذواقهم و مسالكهم و قد جنى هذا التعنف على التاريخ دون اشتثناء.

و كان ينبغي أن يفرق بين الأمور إذا كان لشخص جهات جمة لا توافقه و يمكن أن تكون له جهة تتفق بها فنأخذ منه ما صفا و ندع ما كدُر.

فهذا مرزا معتمد بن أحمد الشيعي الكشميري ثم الدهلوي تلميذ الشيخ مولانا المحدث عبد العزيز الدهلوي صاحب "تحفة الإثنا العشرية" و نجل الشاه ولى الله الدهلوي المحدث لم يعتن بحياته من أهل السنة إلا صاحب نزهة الخواطرو لم يذكره أحد من مؤرخي كشمير مع أنه تلميذ المفتي صدر الدين الآزرده الكشميري و الشيخ رشيد الدين الكشميري الدهلوي و غيرهم من علماء الأحناف.وهو صاحب مؤلفات و تلخيصات كثيرة إلا أنه خالف أستاذه و مربيه المحدث عبد العزيز الدهلوي.

فمن هؤلاء الأماثل الذي أودّ أن أودعه هذه السطور لا يعرفه أحد في الدوائر العلمية و الأدبية غير أنه شاعر لغة الضاد و أديبها و ناشرها و مروّجها و المعتني بشأنها عظيم الهامة قصير القامة بهيّ الطلعة مولانا جلال الدين الغازي الشيعي تتلمذت عليه أشهرا عام 1984م.لا ريب أنه كان أديبا بارعا و شاعرا قديرا يتقن العربية و يحبها و يهتم بإصلاح شعسها في كشمير يحفظ آلافا من الشعر العربي على ظهر قلبه فقسمته قسمين لم أقبل منه ما يتعلق بتشيعه و اعتقت منه ما يتعلق بأخلاقه الدمثة اللطيفة و أدبه الجم لم يكن يماثله في وقته أحد من علماء كشمير في الأدب العربي و شعره لأن العلامة أنور شاه و ميرك شاه الأندرابي الكشميريان كانا قد وافاهما اليقين قبل سنين و قد درّس الأدب العربي و شعره لمدة مديدة في باب السهلم في بدجام بكشمير كما درّسه في الكلية الشرقية التابعة

[6] رئيس قسم اللغة العربية بكلية أمرسينغ الحكومية سرينغر كشمير

للجنة نصرة الإسلام.

نبذة و جيزة عن حياته:

هو علي جلال الدين الغازي يكني بأبي محمّد ويلقّب بالمِيْثَم، ولد عام 1926م المطابق 1345 من الهجرة في شمس واري نمجه بل بـ "سرينجركشمير.

قدم جدّه مع عائلته إلى كشمير برفقة مير السيد علي الهمداني عام 781هـ وكان من بين هؤلاء السادات السيّد مولانا تاج الدين الأصفهاني والمير السيّد سلطان حيدر الكبروي.

تزّوج مولانا تاج الدين بابنة العلامة ملا أحمد الكشميري أستاذ السلطان شهاب الدين الشاهميري والسطان قطب الدين الشاه ميري.

رزق الله تاج الدين ولداً سمّاه ملا أحمد تيمنًا باسم جدّه الذين أضحى وزيراً للسطان زين العابدين بعدُ وجليساً وشاعرًا، هو الذي ألّف كتاب "وقائع كشمير" وترجم مهابهارت إلى الفارسية، وقضى حياة حافلة بالعلم والعرفان ودُفن في مقبرة السلاطين بكشمير وترك خلفه مولانا رضي الدين أستاذ العلامة بابا داؤد الخاكي، قيل إنّه كان لرضيّ الدين خلقة كبيرة من التلاميذ فأظهر يوما مذهبه (التشيّع) فاضطرّ بابا داؤد الخاكي وشمس الدين بال إلى مغادرة مجلس الدّرس، يقول المؤرخون من الشيعة الإمامية إنّ رضي الدين قد قتل تحت جور الميرزا الكاشغري عام 956 أو 957 من الهجرة.

لعب مولانا رضي الدين دورا هاما في ترويج مذهب الشيعة الإمامية في كشمير لكونه مغورارا ومقداما وعميدا ثمّ ناظما لتلك مدرسة التي كانت في قطب الدين بوره بسرينجر كان له ولد ملاً محمّد عبّاس اسما الذي نجا بنفسه فارّا إلى "تبت" من ظلم ميرزا حيدر الكاشغري السالف الذكر فلما قضى الكاشغري نحبه رجع الملا إلى وطنه ولد له ابن أسماه بـ ملا محمّد المعصوم وملا محمّد المعصوم انجب ولدا ملا محمّد عبّاس الثاني اسما المدفون في كولجام باسلام آباد كشيمر. وسكن نجل ملا محمّد عبّاس اسمه ملا محمّد أفضل في نمجه بل بسرينجر و انحدر عنه ملا محمّد رضا فمن أحفاده مولانا علي جلال الدين الذي نحن بصدده.

كان قاسم عليّ جدُّ جلال الدين ابن أخت ناظم أمور كشمير لميرزا أحمد على الذي كان يتحمّس للشيعة الإمامية في كشمير فبنى هذا الناظم لهم المباني لعقد المحافل والأعراس والنوادي والمراسم.

وُلد جلال الدين في هذه البيئة عام 1926م المطابق 1345 من الهجرة وأخذ حظًّا وافرا منها بل وأقول "نصيب الأسد" كما اكتسب العلوم الإسلامية من الكلية الشرقية التابعة لنصرة الإسلام، ونال شهادة "مولوي فاضل"، من جامعة بنجاب و زار دارالعلوم الديوبندية ولكنّه لم يوفّق بالتعلّم بها، ثمّ أنّه عيّن معلّما في الكلية الشرقية لمدة من الزمن.

ولمّا أقام حجّة الإسلام السيّد محمّد يوسف جامع باب العلم في "بدجام" بكشمير غادر هذه المعلم هذه الكلية وخدم هذه الجامعة لمدة طويلة وأصبح عميدا لها فيما بعدُ. لا بدّ هنا من نظرة خاطفة على هذا الجامعة لان المترجم قضى عمره الطويل عميدًا لهذه الجامعة والشيء بالشيء يذكر وإذ أنا من ابن بجدتها.

التحقت (أنا كاتب هذه السطور) بهذه الجامعة عام 1984 لمدة سبعة أشهر وزرت بها مولانا جلال الدين وسمعته يستهزئ بأبي هريرة رضي الله عنه وبأصحاب الرجال ولكنّي رأيته شخصية جمّة العلم لم أر مثله في الكلية الشرقية التي درست فيها ما بين عام 1979 م و 1984م، كانت هذه الجامعة منتدي الأدباء والعلماء آنذاك.

ثمّ أنّي وددت عام 2006م أن أجمع المعلومات عن دور العلوم التي أنشأت في كشمير في هذا القرن فذهبت إلى هذه الجامعة فرأيت بها أطفالاً صغارًا يتجولّون ويلعبون فاستفسرت بعض الرجال عن الجامعة فقيل لي أنّها نقلت إلى قرية تدعى "ميركند" وخصّص مبناها القديم المركزي لتعليم العلوم العصرية وكذلك فعلت لجنة "نصرة الإسلام" ولجنة تبليغ الإسلام فقد أخرج هؤلاء العلماء المزعومون العلوم الإسلامية من مبانيها بيد أنّهم يُتعبون أنفسهم في جمع التبرّعات طوال السنة على اسم ترويج العلوم الدينية بين شعب كشمير.

لعلّ نقل هذه الدار من مكانها إلى مكان بعيد آخر أدّى إلى خلاف شديد بين أهل الشيعة في "بدجام" انقسموا إلى احزاب وجماعات يشعر الزائر الشحناء بينهم بدون مشقّة، كما أنّهم اختلفوا فيما بينهم سياسيًّا. و أصعب أمر للزّائر في الاوساط الشّيعيّة هو أنه لا يقدر على حُكم قاطع حتمّى لأنّ عقيدة "التّقية" أو "عقيدة النّفاق" هي أكثر مانع وعائق في الحكم. فيمكن إذا تحدّث إليك عالم منهم تثق به واطمئنت بكلامه يكون قد قاله "تقيّة". وإنّ السياسة الغاشمة المفرّقة التي قال عنها الشيخ محمّد عبده:

لعن الله سَاسَ ويِسُوسُ ومَسُوسَ وسَائسَ" هي فرّقت جمعهم شتّتت شملهم، وأدّت إلى الخلاف بينهم.

إسهام مولانا جلال الدين الغازي في الأدب العربي:

	اسم القصيدة	عدد الأبيات	اسم الكتاب
1-	الرثاء للإمام الخميني	سبعة و ثلاثون بيتا	كتاب في الأخلاق و السلوك من القرآن.
2-	عبرات و بسمات	اثنان و ثلاثون بيتا	صفات الشيعة
3-	تذييل عبرات	سبعة أبيات	تقديم على الأجازات والتزكيات التى تلقاهاالسيد يوسف
4-	القصيدة الغراء	ستون بيتاً	
5-	رقص من رعابيب	ستة و عشرون بيتا	
6-	عبرات الميثم على وفاة سكينة	اثنان و خمسون بيتا	
7-	الغوث يا صاحب العصر	عشرة أبيات	
8-	سهام الليل	ستة و خمسون بيتا	
9-	عباس العلي	خمسة أبيات	
10-	مرثية آية الله العظمى	ستة أبيات	
11-	مروري يباب قادر الجيلاني	أربعة و خمسون بيتا	
12-	الخطاب لصدر المؤتمر الشرعي	اثنان و ثلاثون بيتا	
13-	آقاالسيد يوسف مدظله	ثمانية أبيات	
14-	مناجاة	أربعون بيتا	

وللمترجم له قصائد في الرثاء و زوال الدنيا يبدو فيها كأنه ابن بجدته و المتضلع منه فاضت فيها فريحته الشعرية و سالت خواطره لم يقض مثلُها في قصائد أخرى.منها قصيدته عبرات الميثم على و فاة سكينة يقول فيها:

هي الدنيا تؤول إلى الزوال فلا تغترّ بيُسر في الليالي

فـإنا قـد رأيـنا فيـــنا له ملق و فتك بالعوالى

نسُـرّ إن رزقنا الخير فيـها من الجاه و أولاد ز مال

ترخينا أياماً نطيب فيها فنمشي مشية الزهر الجمال

ويقول :

تزكى نسوة الكشـــــمير طرّاً و تنذرهن بالخطب الكمال
فلوكانت النساء كمن فقدنا لفضّلت النساء على الرجال
ومالتأنيث عيب لاسم شمس ولا التـــذكير فخـــر للهـــلال
فإنا قد نرى الأيـــام فيـــــنا تشبهت النـــساء بالـــرجـال
بدور قـــد برزن على ســـروج من الإسلام و الإيمان خـــال

و يقول:

فصبراً ابن أحمد مصطفى كن إلى الأولاد أميل في العضال
لأن الـــورد ليـــس لـه بـقـــاء و مـــاء الـــورد يبقى كاللآلى
بأنا قـــد رزئـــنا بمـــثل هذا فـــزرنا في المنـام أو الخيال

وقال في الرثاء على آية الله العظمى آقا السيد محسن الحكيم:

يا خليلى دمع عين قاض قم واندب رُكنُ دين هـــاض
سيد السادات منا كان ماء وجه الدين ها ها غـاض
ضرس علم فضّ بالطعان أنيـــق الأعتاف داهـــراً راض

وله قصيدة أنيقة في رثاء الامام الخميني بدأها بما يلى:

أسدى إليك يا قائما في الورى همّ الأناس و غمّهم و المحـشرا
لمّا نعى ناعون فقد وصيدنا وفريـــدنا عـــزّ القنا إذ انبرى
كان الفقيد سرور آل محمّد رضوى نرى غاب في جدث الثرى

كان جلال الدين نزل بدار النجفي في ممبئ عام 1992م فاكتحل برؤية أساتذة جهابذة كثيرين فتأثر بعلمهم و سلوكهم به فقال بها قصيدة سمّاها عبرات و بسمات :

فدى لدار الحوزة الآيات و علم اليقين من معين حيات
منازل للقربى مدارس للهدى وللصوم و التطهير و الصلواة
يبثون بالأنفاس من حرّجمرة لذي فضل و من علـــماء آت

و جمع من الطلاب طلاب علم لقد شرّفوا بالحق خير سمات

و نقد جلال الدين بيئة المدرسة نقداً لمّا رأى فيها غير ما كان يتوقع منها فيقول:

لقد ضيعوا الطلاب من طول رقدة رواحاً و طول اليوم و الغـدوات

و ان انتهبوا كانوا غزاة ملاعب فيه عجباً للعقل من زلة و سبات

والنظم و اتسق الذي ضيّعوا عياذا مـن الرحـمان أمر هُـداة

وللميثم قصيدة غرّاء قال:

إذا سطع الصبح و غابت شهاب فللشوق منّي زخـرة و حـباب

فأسدى إلى لقياكِ يا من فتنتني إذا حال من دون النجوم اللعاب

وقد كنت قدماً في ضنى هذه المها إذا حل بين كنت منه أُصـاب

وله قصيدة أخرى مدح فيها أستاذه آقا السيد يوسف و لكن الساسة و السياسة لعبت دوراً مهمًّا في تفريق شمل الشيعة في بدغام حتى أن أسرة واحدة انقسمت إلى أقسام عديدة و إلى منظمات سياسية عديدة و نقلت جامعة باب العلم إلى ميركند فقلب جلال الدين لأستاذه ظهر المجنّ و قرض قصيدة عبّر فيها عن قلبه الكاره المنكر للأحوال التى احتدقت بهذه العائلة عام 1379 وقال:

دناءة و قبـاحة أن تظـهرا كرم و نبل إن ترى أن تسترا

شيخ الحقيقة والتقي بدر الدجى عار عليك أن تيارى خنصرا

هيهات أن تدنو إلى أهل الغنى يا من تدلّى أن رقيت الممبرا

وبعد تغيير القافية و الرديف في نفس القصيدة قال:

ألا ياسيد السادات اسمع فإني قد سمعت بمضغ هِمْخَعْ

و إني في جوارك في الرزايا بدين فوق دين فليس مطـمع

و لم أحصل بمال أو بوفر لفقير قد بلاني بأرض يلـقع

فَدَعْ عن ذكر دار أو عقار طـريـق تالـد أو خير منفـع

و للمترجم له مناجاة ألحقها بتقديمه للإجازات و التزكيات التى تلقاها السيد يوسف الموسوي الكشميري من العلماء العباقرة الشيعيين اقتباسا منها ما يلى:

إلهـى و مولاي إليـك أرغـب و حمدك من ماء الحياة أعـذب

إلهي و كيف العمرمن كان قاصرًا له عقدة في العقول و إليكم أقرب
لذنب عظيم ثم أقبح فاحـــش و عـــلـم كغـيم بـرق منه خلّب
فاهٌ و آهٌ مـــن تغـــير حالـتى إذا النـار تستـولى عـلىّ و تغـلب

لـم يسـاهم المتـرجم لـه في مجـال الشـعر بـل أسـهم في النثـر الأدب العربي أيضـا فلـه كتـاب على طـراز ريـاض الصـالحين عنـوان فيـه الآيـات الكريمـة مـن القـرآن تتضـمن ثقافـة المسـلم و جمـع أدعيـة مـن القـرآن و الحـديث الشـريف كمـا أنـه جمـع الأحاديـث تتعلـق بفضـائل المعصـومين و معظمهـا منقولـة عـن أصـول الكـافي و بحـار الأنـوار و المحجّـة البيضـاء ، و كـلا المجموعين تسلّط الأضواء على سلوك المسلم ليلَ نهار مع الآخرين.

ولـه كتـاب أسـماه "صـفات الشـيعة" اسـتهلّه ببيـان خلـق العقـل و الجهـل و لـم يبـدأ الكتـاب بالبسـملة و الحمدلـة كعـادة العلمـاء بـل بـدأه بحـديث،ثم ذكـر الأضـداد مثـل الإيمـان و الكفـر و التصـديق و الجحـود و الرخـاء و القنـوط و الشـكر و الكفـران و الحكمـة و معناهـا و الصـبر و معناهـا و الفـرح و الحـزن و الاسـتغفار و الاعتزار إلى عير ذلـك.ثـم ذكـر روايـة عـن جميـل جاء فيه:

"النـاس على ثلاثـة أوصـاف:عـالم و مـتعلم وغثـاء فـنحن العلمـاء و شـيعتنا المتعلمون و سائر الناس غثاء".

هـذا و لـه كتـاب الفـرائض جمـع فيـه مسـائل الإرث و موانعـه و مقـدمات هـذا العلـم و مقاصـده و لواحقـه و فوائـده على مـنهج تطبيقي عملي و قسّـم الكتـاب إلى مقـدمات أربـع و ذكـر تحـت المقدمـة الرابعـة مقاصـد و فصـولا لأن مسـائل الإرث تحتـاج إلى تفصـيل الكتـاب و تبويبـه أكثرمن أي كتاب آخر،و إليكم نموذجا من نثره:

" أمـا بعـد:فـلا يخفـي على الإخـوان أن الباعـث على طبـع هـذه الرسـالة الشـريفة الزهـراء التي هي في جيـد الأيـام كالوشـاح على ليلى أو النجـوم لـيلا هـو المناجـاة المـذكورة و المنى المسـطورة في عقبهـا[7] لما لـم يسـع لنـا طبعهـا و نشـرها نظـرا إلى بعـض الأحـوال و كـان في نظـري أن المـولى المكـرم و الأسـتاذ

[7] ذكرت هذه المناجاة من قبل هي ملحقة بهذه المقدمة

المعظم سيد العلماء الأعلام و قدوة الفقهاء العظام و حامي شريعة سيد المرسلين حجة الإسلام و المسلمين آقانا آقا السيد يوسف الموسوي الصفوي النجفي الصدر للمؤتمر الشرعي بكشمير لا عدمناه لما سافر في السنة الماضية إلى بيت الله الحرام و بلد النبي المشاهد المشرفة حصلتهم الإجازات الجديدة من حجج الإسلام و آيات الله في الأنام مجيبين عن الاعتراضات الواردة عليهم عن بعض السفهاء من الناس فحضرت عندهم لأظفر من الجواهر المخزونات للنشر و الطبع و إتمام المنية بالحاقها المناجاة دركا للسعادات و لإزالة الشبهات عن العوام بإجازات حجج الإسلام و ما صدر من أقلام الأعلام تنبيها للأنام ليكشف القناع و يتم الحجة على من كان له قلب أو القى السمع و هو شهيد و كان بمرأى من معاد و مسمع من سعيد"

وقال:

وأشهد بالله و كفى به شهيدا و إنه لقسم لو تعلمون عظيم بأني لم أجد فرصة لأجول نظري في سطراتها مرّة أخرى لتشذيب الكلمات و تهذيبها و صياغتها في ابداع الأساليب و تحسين ديباجها و كذلك الحال في المناجات و نحوها و صيغها و عروضها لاشتغالى بالمطالعة و التدريس و الإعداد للنوائب و الحوادث فلا أدري أ أحفظ النجوم لذي الكلوم أم أتيح العلوم .

تفرقت الظباء على خداش فما يدري خداش ما يصيد

وفاته:

مهما كان الأمر فان المترجم قد خدم هذه الدّار بكل إخلاص ونيّة صالحة إلى مدّة طويلة وجاءه الأجل 23 يوليو 1992م المطابق 13 محرم الحرام سنة 1413هـ.

نشـأة علم البلاغة وتطـوره عبر العصور

الدكتور شمس كمال انجم[8]

المدخل:

إن البلاغـة مـن العلـوم العربيـة التي خـدمت القـرآن الكـريم خدمـة عظيمـة جليـلة، ولكنهـا ليسـت مقصـورة على العـرب فقـط، بـل هنـاك سمـة عظيمـة القـدر في اللغـات التي بلغـت درجـة كبيرة مـن التطـور والارتقـاء. و البلاغـة في العـرب لـم تكـن مقصـورة على فـئة خاصـة منهـا، بل كانـت البلاغـة طبع العـرب كافـة، ثم طبيعة الحياة العربية قبل الإسلام كانت ذات صلة خاصة باللغة وبلاغتها وفصاحتها، لأنها كانت حياة قائمة على التفاخر والتكاثر بالأنساب والمآثر والأيام، والشعر هو الديوان الذي كانوا يفزعون إليه ليسجلوا فيه كل تلك المفاخر، وكذلك كانت لهم أسواقهم الأدبية التي يقيمونها في مواسم معينة يستعدون لها ويتوافدون إليها من كل حدب وصوب، وأسواق العرب تلك أشبه بمؤتمرات أدبية أو معارض لسانية تخرج القبيلة فيها عن عزلتها، ويسود فيها جو من فصاحة اللسان ونصاعة البيان، وسنعرض نشأة هذا الفن الشريف الجليل وتطوره عبر التاريخ والقرون وذلك من خلال جهود العلماء والنقاد وإليكم تفصيله كما يأتي:

العصر الجاهلي

لقـد وصـل الأدبـاء والبلغـاء في العصـر الجاهـلي مرتبـة رفيعـة مـن البلاغـة والبـيان، كمـا صـور ذلـك القـرآن في غير ما موضع، فقد وصفهم قبل نزوله بأنهم أصحاب بيان، فقال سبحانه وتعالى: "الرحمن علم القـرآن، خلـق الإنسـان، علمـه البيـان" [(9)] وقـال عـن شـدة أسـره و تأييـده في النفـوس وحسـن كلامهـم: "ومـن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا"[(10)] ووصـف الوليد بن المغيرة القرآن فقال: "والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن وأن له لحلاوة وأن عليه لطلاوة وأن أعلاه لمثمر، وأن أسفله لمغدق"[(11)] وقال القرآن الكريم عنهم: "فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد"[(12)] وقال: "ما ضربوه لـك إلا جـدلا بـل هـم قـوم خصـمون"[(13)] وأكـبر الدلالـة وأعظمهـا على بلاغـتهم هي دعـوتهم القـرآن أقصـاهم

---

[8] رئيس قسم اللغة العربية بجامعة راجوري جامو وكشمير

([9]) سورة الرحمن الآية 1ــ4

([10]) سورة البقرة: 204

([11]) سيرة ابن هشام: 270/1

([12]) سورة الأحزاب: 19

([13]) سورة الزخرف: 58

وأدناهم إلى معارضته في بلاغته الباهرة.

يقول الدكتور شوقي ضيف: "وهي دعوة تدل على ما أوتوه من اللسن والفصاحة على حوك الكلام، كما تدل على بصرهم بتميز أقدار الألفاظ والمعاني، وتبيين ما يجري فيها من جود الإفهام وبلاغة التعبير وكان بعض الشعراء في الجاهلية يعنون بأشعارهم وينقحونها قبل أن يذيعونها بين الناس فقد اشتهر زهير بن أبي سلمة بالحوليات وتنقيح الشعر، وتنقيح الشاعر للشعر وإعادة النظر في قصيدته تدل على الروح النقدية التي كان الشاعر نفسه يمارسها قبل أن ينقد السامعون"[14].

وهناك روايات عدة تجعلنا نقول بأنهم في جاهليتهم كانوا ببلاغة تامة، ومن تلك ما روي لنا عن طرفة بن العبد البكري، الشاعر الجاهلي المعروف أنه استمع وهو صغير إذ كان يلعب مع الصبيان قول المسيّب بن علس في أثناء مروره بمجلس قيس بن ثعلبة وقد ألم فيها بوصف بعيره:

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم

وإذا بطرفة يصرخ قائلا: "استنوق الجمل" إذ الصيعرية سمة خاصة بالنوق لا بالجمال[15]. ويوضح كذلك ما ذهبنا إليه ما جاء في شعر النابغة من إقواء[16]، وكذلك لقبوا شعرائهم ألقابا تدل على مدى إحسانهم في رأيهم مثل المهلهل والمرقش والمثقب والمنخل والمتنخل والأفوه، فكأنما كان هناك ذوق عام دفع الشعراء ومن وراءهم من الخطباء إلى تحبير كلامهم وتجويده، ومما لا شك فيه أن أسواقهم الكبيرة هي التي عملت على نشأة هذا الذوق[17]، وإن شك بعض الباحثين في هذه الروايات[18] لكننا مع هذا الشك نقرر أن هذه الروايات تعكس جانبا من فهم العرب للنقد في مرحلة التدوين الأولى.

العصر الإسلامي

إذا انتقلنا إلى العصر الإسلامي نجد أن هذه الفكرة البلاغية والعناية بها أخذت تنمو وتزدهر بعد ظهور الإسلام في ضلال القرآن، وبفضل ما نهج القرآن ورسوله صلى الله عليه وسلم من طرق الفصاحة والبلاغة، أما القرآن فقد كانت آياته تتلى آناء الليل وآناء النهار والرسول صلى الله عليه وسلم كان يبلغ على

([14]) البلاغة تطور وتاريخ: 12

([15]) الموشح للمرزباني: 107. 108، الصناعتين: 92.91/1

([16]) الإقواء عيب من عيوب الشعر وهو اختلاف حركة الروي في قصيدة واحدة وهو أن يجيء بيت مرفوعا وآخر مجرورا، انظر: الكافي في العروض للخطيب التبريزي (ت 502هـ) 160 تحقيق عبد الله الحساني

([17]) البلاغة تطور وتاريخ ص 12

([18]) دروس في البلاغة وتطورها ص 10

كل لسان[19]، وكان عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم خطباء مفوهين، فكانوا يستضيئون خطبهم بالقرآن الكريم وخطب الرسول الحكيم، ويروي لنا الجاحظ تلك المقولة المشهورة التي جرت على لسان أبي بكر رضي الله عنه ودارت على ألسنة علماء البلاغة حتى جعلوا لها فصلا خاصا في علم المعاني يسمى "الفصل والوصل" حين عرض الرجل بعض ثوبه فقال له أتبيع الثوب؟ فأجابه "لا عافاك الله" وظاهر اللفظ يوهم أنه دعاء على أبي بكر وليس دعاء له، فنادى أبو بكر لرهافة شعوره ودقة حسه فقال له قل" لا وعافاك الله"[20] وعلم الرجل بذلك الأماكن التي يجب فيها وصل الكلام وفصله، ومعرفة مقاطع الكلام وتميز فقره[21]، وقد جاء عن عمر أنه قال عن زهير بن أبي سلمى أنه لا يتبع حوشي الكلام وأنه كان لا يعاظل في الكلام[22].

العصر الأموي

إذا انتقلنا إلى العصر الأموي نجد أن البلاغة بدأت بجميع ألوانها، وأخذت الفكرة البلاغية والأدبية تزدهر وتنمو، وكان الخلفاء يعقدون المجالس ويستمعون إلى الشعراء، ويعلقون على بعض ما يسمونه، وكان المؤدبون يقومون أيضا بدورهم الواضح في تعليم اللغة وآدابها، ورسم القواعد العامة التي تساعد على إتقان اللغة وتذوقها، وقد يشهد ازدهار البلاغة في ذلك العصر ما روي عن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان للشعراء حيث قال شبهتموني مرة بالأسد ومرة بالبازي، ومرة بالصقر ألا قلتم كما قال:

ملوك ينزلون بكل ثغر		إذا ما الهام يوم الروع طارا
رزان في الأمور ترى عليهم		من الشيم الشمائل والنجارا
نجوم يهتدي بهم إذا ما		أخوا الظلمات في القمرات حارا

وهذا يصور لنا التصور البلاغي لدى هذا الخليفة في توجيه كلام للشعراء، إذ يلتزمون في شعرهم صورا لا تحديد فيها ولا تنوّع وتلك دعوة إلى بناء الشعر على وجهات أخرى تتمثل فيها البلاغة في غير جحود أو توقف[23].

وقد كثرت الملاحظات البيانية في العصر العباسي حيث تحضر العرب في المدن والأمصار، ورقيت حياتهم العقلية وكثرت الملاحظات البلاغية والمصطلحات البيانية، وازدهرت الخطابة بجميع أنواعها ازدهارا

([19]) البلاغة تطور وتاريخ ص 12

([20]) البيان والتبيين 261/1

([21]) اثر النحاة في البحث البلاغي ص14

([22]) طبقات فحول الشعراء 63/1

([23]) البلاغة عرض وتوجيه ص 18

عظيما لبواعث كثيرة منها: المجادلة السياسية والعقدية، فكان هناك فرق مختلفة من مثل الجبرية والمرجئة والقدرية والمعتزلة والخوارج والشيعة والزيديون، فكثرت الملاحظات في المجال البياني وكذلك كان هناك تنافس شديد بين الشعراء لأجل فتح الخلفاء أبوابا لهم، فوفدوا إليهم من كل فج لحصول الجوائز وأقاموا أسواق المربد والكنانة مقام عكاظ في الجاهلية، حتى استطاع جرير والفرزدق أن يتطور في سوق المربد بالهجاء القديم[24].

أثر الدراسات اللغوية والنحوية في تطور فن البلاغة:

لقد شارك اللغويون في العصر العباسي الأول في الملاحظات البلاغية في ثنايا تعليقاتهم على النصوص الشعرية وآي الذكر الحكيم وظل دورهم دورا مشهودا منذ عهد التدوين واستطاعوا أن يسيطروا على مناهج الدروس ويرفعوا لواء المحافظة على اللغة وكان أبو عبيدة صاحب مجاز القرآن أشهر أولئك الذين وضعوا الأسس الأولي للبلاغة ويقف إلى جانب ذلك الأصمعي صحب فحولة الشعراء، وابن قتيبة، والمبرد، وثعلب، وأحمد بن فارس صاحب كتاب الصاحبي.

أما ابن قتيبة فإنه نثر جملة ملاحظاته في كتابه "تأويل مشكل القرآن" وقد صنفه للرد على الملاحدة وأشباههم الذين يطعنون في القرآن الكريم ويقولون إن به تناقضا وفسادا في النظم واضطرابا في الإعراب، وهو طعن مرده إلى الجهل بأساليب اللغة العربية، ومن ثم ألف ابن قتيبة كتابه ليبطل الباطل، وعرض فيه بعض آي الذكر الحكيم مستشهدا لها بنصوص الشعر ليقيم الدليل على ما يقولونه ويسقط دعوة الطاعنين ويمحوها[25].

نجد في كتابه "تأويل مشكل القرآن" أنه تناول فيه ألوانا بلاغية عديدة كالحذف والزيادة والتقديم والتأخير والاستفهام وخروجه من أصل وصفه والفصل والوصل و المجاز العقلي والتكرار والقلب والتشبيه والمجاز المرسل والكناية والتعريض والتوجيه والمشاكلة والفواصل القرآنية[26]. ومن النحاة الذين أثروا الدرس البلاغي وكانت لهم يد طولى في دور النشأة الأولى إمام النحاة سيبويه(ت 180هـ) وقد تحدثنا في كتابه الشهير "الكتاب" سيبويه تحدثنا في صدر كتابه عن التقديم والتأخير بكلام يعتبر هو العمدة وصاحب الريادة فيه، وربما كان أول من عرف سرّ هذا اللون البلاغي من العلماء، والعلماء قبله كانوا يعرفون التقديم والتأخير ولكن لم يقفوا على أسراره البلاغية.

([24]) البلاغة تطور وتاريخ ص 18 وما بعدها

([25]) البلاغة تطور وتاريخ ص 58

([26]) أثر النحاة في البحث البلاغي ص 176

وكذلك زاد في حديثه عن الاستفهام فقال يستحسن أن يلي المسؤول عنه الهمزة، فيقدم على الفعل، ولا يجعله فاسدا إذ لم يل الهمزة، بل يجوز له أن يتقدم أو يتأخر وإن كان التقديم عنده أفضل، وقد اعتنى البلاغيون بأدوات الاستفهام اهتماما بالغا واعتبروها أساسا من أسس علم المعاني، وسيبويه اهتم بها كذلك وتحدث عنها في مواضع كثيرة من كتابه وألم بها إلماما كبيرا ليسجل له بالفخر ما وصل إليه في هذا الصدد. فهو يفرق أولا بين أدوات الاستفهام جميعا وبين الهمزة، فأدوات الاستفهام يقبح دخولها على الاسم إذا كان بعده فعل، إلا عند الضرورة، ولكن الهمزة يصح أن تدخل على الاسم بدون قبح، وإن كان بعده فعل بعده فعل(3).

كما تحدث سيبويه عن الفصل والوصل وشبه كمال الاتصال، لكنه لم يذكر هذا المصطلح لأنه لم يعهد في زمانه ولم يقتصر كلامه على علم المعاني، بل تكلم عن البيان والتشبيه والاستعارة والمجاز والكناية والتنويع وغير ذلك.

أما المبرد (ت 285هـ)[27] فنجد له أيضا ملاحظات بيانية خلال كتابه الكامل، من حين إلى حين، يعرض فيه نماذج أدبية وشعرية أو نثرية كثيرة، متبعا لها بالشرح اللغوي ومشيرا أحيانا إلى ما في الكلام من استعارة أو إيجاز أو إطناب أو تقديم و تأخير، ويذكر أحيانا كلمة المجاز ولكن بالمعنى اللغوي، وقد وقف عند الكناية وجعلها على ثلاثة أوجه، فهي إما للتعمية والتغطية أو للرغبة عن اللفظ، أو للتضخيم والتعظيم، وفصل الحديث في التشبيه تفصيلا لعله لم يسبق إليه، وساق فيه أمثلة كثيرة، وقد وزعه على أربعة أنواع: تشبيه مفرط وتشبيه مقارب وتشبيه بعيد وربما كان ما خلفه البلاغيون من بعده ملاحظة تنوع أضرب الخبر والمعنى، وأخذ ذلك أن الكندي الفيلسوف قال له يوما: إني أجد في كلام العرب حشوا يقولون عبد الله قائم، وإن عبد الله قائم ،وإن عبد الله لقائم، والمعنى واحد، فأجابه قائلا: لا بل له معاني مختلفة، فعبد الله قائم إخبار عن قيامه، وإن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل، وأن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر[28].

وقد فتح البلاغيون لهذه الإجابة فصلا خاصا في علم المعاني فسموه "أضرب الخبر" وسموا الخبر الأول في سؤال الكندي وإجابة المبرد ابتدائيا،والثاني طلبيا، والثالث إنكاريا، وقد تناول المبرد الإيجاز والمساواة والإطناب، فتحدث عن الاختصار المفهم والإطناب المفخم[29]، وعما ساعدت ألفاظه معانيه[30].كما تعرض

([27]) هو محمد بن يزيد الأزدي، زعيم المدرسة النحوية البصرية، وإمام النحاة في عصره، وكان أعلم الناس بمذاهب البصريين في النحو ومقاييسه، (انظر مقدمة تهذيب اللغة) وقد أجمع أصحاب التراجم على زعامة المبرد للنحو، انظر ترجمته في الوفيات 441/3، تاريخ بغداد 380/3

([28]) دلائل الإعجاز ص 221 مطبعة السعادة

([29]) انظر: الكامل 27/1

([30]) المرجع نفسه 24/1

المبرد للكناية فقال: والكلام يجري على ضروب، منه ما يكون في الأصل لنفسه، ومنه ما يكنى عنه لغيره ومنه ما لا يقع مثالا فيكون أبلغ في الوصف[31]، وقد تحدث عن أضرب الكناية مستشهدا بكل ضرب منها ما يوضحه من شواهد قرآنية أو شعرية وهي عنده للتعمية والتغطية وإما للرغبة عن اللفظ أو للتضخيم ومن هذا الضرب اشتقت الكناية.

ثعلب(ت391هـ)[32]: يقول المبرد هو أعلم الكوفيين، وقال الفراء هو أصدق أهل العربية لسانا، وأعظمهم شأنا وأبعدهم ذكرا وأرفعهم قدرا وأوضحهم علما وأثبتهم حفظا، وقد انتهى علم الكوفيين إلى ابن السكيت وثعلب. وله كتب كثيرة في النحو والصرف،وله كتيب صغير أسماه "قواعد الشعر"، هذا الكتاب له أهمية قصوى نظرا لما يحويه من بلاغة وشعر ونقد وصغره لم يقلل من شأنه في تاريخ البلاغة العربية، حيث إنه يعتبر من أقرب المنابع التي اغترف منها ابن المعتز أدبه، وتأثر به في كتابه "البديع" الذي طارت شهرته بين الأقدمين والمحدثين[33]. وقد تحدث ثعلب في كتابه هذا عن قواعد الشعر وهي عنده أربعة: أمر ونهي وخبر واستخبار، ويذكر مثالا شعريا لكل واحد منها، ثم تفرع هذه القواعد الأربعة إلى مدح وهجاء ومراث واعتذار وتشبيب وتشبيه وأخبار[34]، ويرد بعض الأمثلة كشواهد على هذه التعريفات دون بذل محاولة لتفسيرها أو تحليلها، ويعرض المبالغة باسم الإفراط في الإغراق[35]، والكناية باسم "لطافة المعنى" ويذكر الاستعارة ويعرفها بقوله: "وهو أن يستعار للشيء اسم غيره أو معنى سواه"[36] ثم تحدث عن جزالة اللفظ[37]، والمطابقة[38] وهو تكرير اللفظة بمعنيين مختلفين، وقد ورد ذكر ألوان من البيان في كتابه "قواعد الشعر" وأخرى من البديع، بعضها كان معروفا من قبل، وبعضها لم يكن معروفا، وقد ذكر التشبيه والمبالغة والكناية والتعريض والاستعارة كما ذكر الطباق والجناس والإيجاز، ولم تكن آرائه البلاغية مقصورة في هذا الكتاب بل كانت مبسوطة في كتب أخرى، منها ما صنفه بنفسه منها ما صنفه غيره، وأورد فيه آراء العلماء كأمثال ثعلب عن البلاغة والبيان.

هذه هي بعض الملاحظات التي سجلت على أيدي علماء هذه الطائفة من اللغويين والنحاة وهي

([31]) المرجع نفسه 184.183/1

([32]) هو أبو العباس أحمد بن يحي ثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة، انظر: ترجمته في نزهة الألباء ص157، المزهر 412/2

([33]) أثر النحاة في البحث البلاغي ص 221

([34]) انظر قواعد الشعر ص 37

([35]) المرجع نفسه ص 57

([36]) المرجع نفسه ص 67

([37]) المرجع نفسه ص 66

([38]) المرجع نفسه ص 64

ملاحظات كانت لها أكبر الدلالة في وضع الدراسات المنهجية في البلاغة العربية.

المتكلمون والبلاغة:

من أعلام هذه الطائفة واصل بن عطا، الذي استطاع انتزاع عمرو بن عبيد من أستاذه الحسن البصري، ومنهم أبو شمر، وأبو إسحاق النظام وهو لا يبارى في المناظرة في إيراد الحجج، وتفريع المعاني، ومنهم: ثمامة بن أشرس.

ومن أبرز هذه الطائفة: أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ[39]، وقد كان موسوعي الثقافة، كثير المحفوظ، كما كان أديبا بصيرا بأدوات الأدب وما يقوم به من لغة وفكر وحسن تصوير، وكانت له معرفة جيد الكلام وبليغه، وتمييز طبقات الكلام خبرة، لم تكن لأحد غيره[40]، فاستطاع أن يسهم في ميدان البلاغة بما لم يسبقه إليه أحد، وله كتاب نظم القرآن وكتاب صياغة الكلام[41]، وكذلك البيان والتبيين، تناول فيها موضوعات البيان والفصاحة، وجمع فيه ملاحظات العرب البيانية وبعض ملاحظات الأجانب وسجل كثيرا من ملاحظات المعاصرين وخاصة المتكلمين، وقد أكثر من الحديث في كتابه عن حسن الصوغ، وكمال التركيب ودقة تأليف اللفظ، وجمال نظمه ولم يكن لكل من هذه الألفاظ مدلولا خاصا متميزا عن الأمم السابقة والمختلفة من فرس ويونان وروم وهنود، كما نقل الجاحظ أقوالا كثيرة في البلاغة[42].

كما تعرض الجاحظ لكثير من الفنون البلاغية، فعرضها عرضا يمتاز بالجمع بين الحديث النظري والنموذج التطبيقي، ففي البيان والتبيين نماذج رائعة وكثيرة لكل ما عرض له الجاحظ من فنون البلاغة، وأساليب البيان، لقد عرض للبديع فذكر أصحابه وعدد شعرائه[43]، كما عرض الإيجاز وبين فضله وأتى بنماذج منه[44]، وتحدث عن الإطناب، فذمه وذم التكلف فيه[45]،وذكر الازدواج ومثل له[46]، وتحدث عن المجاز والتشبيه وذكرهما في كثير من المناسبات الرائعة[47]، وفي كتاب الحيوان وقفات موفقة ولفتات ذكية تدل على إدراك الجاحظ لحقيقة المجاز ولأركان التشبيه، وقد كانت هذه الملاحظات البلاغية التي أوردها

([39]) انظر تاريخ بغداد 214/12، معجم الأدباء 74/16، نزهة الألباء ص 254، الملل والنحل ص 52،

([40]) المؤجز في تاريخ البلاغة ص 12

([41]) معجم الأدباء 74/16

([42]) البيان والتبيين 81،92،96/1

([43]) المرجع نفسه: 55،56/51،4/1

([44]) المرجع نفسه: 197،149/1، 155، 278/2

([45]) المرجع نفسه:195/1، 196، 210/2

([46]) المرجع نفسه 16/2

([47])المرجع نفسه 222/1، 225

الجاحظ هي السبب الذي جعل بعض الباحثين يعتقدون أن الجاحظ ومعاصريه قد فهموا الصفة بين المشبه والمشبه به فهما صحيحا [48].

والجاحظ رغم إيراده لكثير من الشواهد البلاغية لم يكن يعني بوضع مصطلحات أو صياغة والتعريفات والحدود، وهو غير منازع مؤسس البلاغة العربية، كما الدكتور شوقي ضيف، والدكتور سيد نوفل[49].

أثر الكتّاب والنقاد في ازدهار البلاغة:

لقد كان للكتّاب أثر واضح في البلاغة العربية لما امتازوا به من أدب رفيع، وذوق سليم، وقد بدأت هذه المرحلة بعبد الله بن المعتز حين وضع كتابه "البديع" فكان أول كتاب ألف في البلاغة ويجمع فنونها، ثم تتابعت بعده مؤلفات وكان من أشهر ما ظهر منها في القرن الرابع كتب امتزجت البلاغة فيها بالنقد اتخذت كثيرا من الأمور البلاغية فيها مقاييس للنقد الأدبي على أساس الجودة والرداءة وذلك في كتاب "نقد الشعر" لقدامة بن جعفر (ت 337هـ) وكتاب "الموازنة بين الطائيين" للآمدي (ت371هـ) وكتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه" للقاضي الجرجاني (ت392هـ) وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري _ت395هـ).

ومن أهم العوامل التي عملت على ظهور هذه الفئة من أنصار الشعر فئة محافظة ترى الجمال والبلاغة في الشعر القديم، وفئة تأثرت بثقافات وافدة كالفلسفة والمنطق ترى البلاغة والجمال فيما أنشأ المؤلدون والمحدثون كأمثال بشار بن برد (ت167هـ) وأبي نواس (ت198هـ) ومسلم بن الوليد الأنصاري (ت208هـ) وأبي تمام (ت231هـ) وسأتعرض لبعض اشهر الكتب النقدية لهؤلاء النقاد لنتبين خلالها أثرهم في تاريخ البلاغة ونشأتها.

1. قدامة بن جعفر[50]

هو الأديب الذي عاشر الخليفة العباسي المكتفي بالله (ت263-295هـ) وأخذ العربية عن المبرد وثعلب وغيرهما، وبرع بالكتابة والمنطق والحساب والبلاغة ونقد الشعر.

وقد ألف قدامة كتابا أسماه "نقد الشعر" وأول ما رأينا في هذا الكتاب منهجا يعتمد على المنطق ويقدم على الحدود والتعريفات، ويولي عناية خاصة للتقسيم، والتحليل، فللشعر حده، ولكل صفة من صفاته موضع في الكتاب مرسوم له منذ البداية لا يتقدم عنه ولا يتأخر، والذي يعنينا هنا ونحن بصد

([48]) البلاغة العربية ليسد نوفل ص 139

([49]) البلاغة تطور وتاريخ ص 56،57، البلاغة العربية ص 170

([50]) انظر ترجمته في النجوم الزاهرة 197/3، معجم الأدباء 203/6، الفهرست ص198

التاريخ للعمل البلاغي أنه كان يتناول كثيرا من المباحث البلاغية ووقف عندها يعرف ويمثل، وقال الدكتور مازن بأنه لم يتناولها على أنها أبحاث في البلاغة وإنما تناولها على أنها شروط تصل بالأسلوب إذا توفرت فيه إلى الجودة والجمال وعلى أساس من هذا الفهم تناول أبحاثا أصبحت فيما بعد فنونا بلاغية توزعتها علوم المعاني والبيان والبديع، وذلك كالتعميم والإيغال والمساواة والتشبيه والاستعارة والتمثيل والتصريع والسجع والجناس[51]، وقد بلغت فنون البديع عنده التي ذكرها عشرين فنا اتفق مع ابن المعتز في سبعة منها.

2. ابن طباطبا[52]

يعد ابن طباطبا من النقاد الذين اعتمدوا في نقدهم وعرض آرائهم فيها على كثير من الفنون البلاغية في كتابه "عيار الشعر" وكان ابن طباطبا من شعراء عصره ونقاده، وله مصنفات مختلفة في الشعر ومن أهمها "عيار الشعر" وهو كتاب ألفه في صناعة الشعر والميزان الذي يقاس عليه الشعر وبلاغته[53]، وكيف يبلغ الشاعر منه ما يريد، ولعل من أبرز ما تناوله في الصنعة الشعرية ومعيارها موضوع التشبيه فهو عنده موضوع مفصل وبحث مسهوب يعرض فيه لأنواع التشبيهات المختلفة وما يتصل بها[54].

3. الآمدي[55]

الآمدي له مصنفات مختلفة في اللغة والشعر منها: "كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري" وهو من أهم كتبه، وهو فيه يحاول محاولة تقديم البحتري على أبي تمام، ونراه يستهل الكتاب ببيان أن في الشعر مذهبين متقابلين يختلفان من حيث الصنعة والنقد، وقد عرض فيه الآمدي الجدال الواقع بين الطرفين، ثم بعد ذلك يتطرق إلى بيان أن كل شاعر لم يسلم من الطعن على شعره حتى شعراء الجاهلية الممتازين من أمثال امريء القيس وزهير، ثم تحدث عن السرقات عند أبي تمام وتعرض لبعض الجناسات لأبي تمام التي فاته التوفيق فيها، كما يتحدث عن سوء نظم أبي تمام ويعقد ألفاظه وما يجري في شعره من غريب.

([51]) المؤجز في تاريخ البلاغة ص 77

([52]) هو محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، توفي سنة اثنين وعشرين ومائتين من الهجرة. انظر ترجمته في معجم الأدباء 284/6، معاهد التنصيص ص 29/2

([53]) البلاغة تطور وتاريخ ص 123

([54]) المؤجز في تاريخ البلاغة ص 81

([55]) هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، توفي سنة واحد وسبعين وثلاث مائة من الهجرة، انظر ترجمته في معجم الأدباء 275/8، روضات الجنات ص 219، إنباء الرواة 285/1.

4. القاضي الجرجاني[56]

كان القاضي الجرجاني يتولى القضاء للبويهيين في إيران وقد ألف كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه" وقد أراد منه الفصل بين المتنبي وخصومه كما هو واضح من اسم الكتاب، وقد قدم فيه حديثا طويلا فيه الكثير من الفنون البديعية، وفنون البديع في عصره كانت تشتمل على كثير مما خرج فيما بعد نطاق البديع كالاستعارة والتشبيه والتمثيل، وكذلك كان حديثه عن شعر أبي الطيب المتنبي حديث امتزج النقد فيه بالبلاغة وقد كانت البلاغة فيه عنصرا أساسيا من عناصر النقد[57].

5 . أبو هلال العسكري[58]

لقد وضع أبو هلال العسكري كتابا سماه "الصناعتين" أي صناعتي الكتابة والشعر، وقدم له مقدمة ذكر فيها السبب الذي دفعه وحفزه إلى وضع كتاب في علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، وقال إنه ضروري لفهم إعجاز القرآن الكريم وللتميز بين جيد الكلام ورديئه ولوقوف الكتاب والشاعر على ما ينبغي استخدامه من أساليب اللغة الجيدة والبليغة[59]، وهو يستهدف بوضع الكتاب الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة.

ويتألف الكتاب من عشرة أبواب يشتمل على ثلاثة وخمسين فصلا: تناول فيه الموضوعات البلاغية المختلفة من تحديد موضوع البلاغة لغة واصطلاحا إلى تميز جيد الكلام من رديئه، ومعرفة صنعته وحسن الأخذ وقبحه إلى ذكر الإيجاز والإطناب والتشبيه وما يستحسن فيه وما يستقبح وذكر السجع والازدواج والقول في البديع ووجود حصر أبوابه وفنونه[60].

6. ابن رشيق القيرواني[61]:

ألف القيرواني كتابا سماه "العمدة في صناعة الشعر ونقده" وتحدث في الكتاب عن ما يتعلق بالبلاغة، والكتاب يتألف من جزأين يشتملان على نيف ومائة باب، عالج فيه كثيرا من الموضوعات الأدبية والنقدية، كبيانه فضل الشعر والرد على من يكرهه وشرح موقف الإسلام منه وبين منافعه ومضاره، ووقف

([56]) هو علي بن عبد العزيز الجرجاني توفي سنة اثنين وتسعين وثلاث مائة من الهجرة، انظر ترجمته في معجم الأدباء: 14/12، وفيات الأعيان 324/1، إنباء الرواة 285/1

([57]) انظر المؤجز في تاريخ البلاغة: 81

([58]) هو الحسن بن عبسد الله أبي هلال العسكري، انظر ترجمته في معجم الأدباء 135/3، بغية الوعاة ص221،

([59]) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص 40

([60]) الصناعتين ص 8

([61]) هو الحسن بن رشيق القيرواني، توفي سنة ثلاث وستين وأربع مائة، انظر ترجمته في شذرات الذهب 297/3، فوات الوفيات 255/2، إنباء الرواة 298/1

عند البلاغة وتعرض لكل ما كان معروفا من فنون البلاغة حتى عصره، فجعل لكل من تلك الفنون بابا خاصا، وكذلك وضع باب المخترع والبديع ويكون عنده باب المجاز والاستعارة والتمثيل والتشبيه والإشارة والتجنيس، وهو آخر أبواب الجزء الأول، وباب الترديد وباب المطابقة وباب المقابلة، وباب الالتفات وغير ذلك من أبواب الفنون البلاغية والقضايا النقدية.

7. ابن سنان الخفاجي[62]

ألف ابن سنان كتابه وذكر فيه أن معرفة الفصاحة واجبة لمعرفة بلاغة القرآن ولمعرفة نظم الكلام ونقده، ولكنه من الذي لم يفرق بين الفصاحة والبلاغة وتعرض لأول مرة في الدراسات البلاغية لموضوع الأصوات وتعرض في كتابه لكثير من القضايا النقدية وآراء النقاد والشعراء كما عرض في أثناء ذلك لكثير من الفنون البلاغية.

عصر النضج والازدهار:

الإمام عبد القاهر الجرجاني ووضعه لنظريتي المعاني والبيان

لقد بلغ التأليف البلاغي غاية بليغة من الإحكام والنضج في القرن الخامس الهجري وذلك على يد الإمام الشيخ عبد القاهر الجرجاني صاحب كتابي "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة" ولعبد القاهر مكانة كبيرة في تاريخ البلاغة حيث أنه استطاع أن يضع نظريتي علمي المعاني والبيان وضعا دقيقا، وتحدث عن الصور البيانية في أثناء حديثه عن الأسلوب لأنها جزء من الألفاظ أو التراكيب أو الصياغة، لذلك فكثيرا ما نراه في الدلائل يتعرض لبعض المباحث البيانية لم تكن البلاغة في عصره قد عرفت هذا التقسيم الثلاثي الذي عرفته على يد السكاكي فيما بعد، فتحدث عن الكناية والاستعارة والتمثيل والمجاز بكثير من الدقة والتعمق وهو في كل هذا لا ينسى أن ينبه على أن البيان في هذه التراكيب والصور إنما يعود إلى المعاني النحوية التي اقتضت وضعها هذا الوضع[63].

وقد شرح الإمام الجرجاني مزايا النظم مبينا أنها ترجع إلى المعاني والأغراض لأن سياق الألفاظ وترتيبها إنما يكون بحسب ترتيب معانيها وأوضاعها في العقل، ويثبت أن إعجاز القرآن ليس في ألفاظه، فاللفظ المفرد لا قيمة له في ميزان البلاغة و إنما البلاغة في الأسلوب والصياغة والنظم[64].

لقد تابع الشيخ عبد القاهر رحلته وعمله البلاغي الرائع في كتابه "أسرار البلاغة" فبين في أوله فضل

([62]) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي شاعر وأديب. انظر ترجمته في فوات الوفيات 233/1، النجوم الزاهرة 96/5

([63]) المؤجز في تاريخ البلاغة ص 94

([64]) دلائل الإعجاز ص 49.48

الكلام ومزية البيان، ثم ينطلق ليؤكد مما سبق في الدلائل من أن ما يوصف به الكلام ليس حقيقته وصفا للألفاظ المفردة فقال: كيف والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب، قد تحدث في كتابه أسرار البلاغة عن الجناس والسجع محاولا أن يثبت أن الجمال فيهما لا يرجع إلى جرس الحروف، في ظاهر الوضع اللغوي وإنما يرجع إلى المسائل المعنوية، من شأنها أن ترض العقل، وبمقدار هذا الرضى يكون جمال الجناس، والأساس في كل ذلك إنما هو أمر المعاني كيف تختلف وتتفق ومن أين تجتمع وتفترق[65]، ثم عاد بعد ذلك ليبين قيمة المعاني وترفع معناها، وبعد ذلك عقد فصولا يتحدث فيها عن التشبيه والاستعارة والتخيل فيحلل جمال التشبيهات المختلفة وما يتصل من ذلك بطرفي التشبيه أو وجه الشبه، أو طرافة الصورة كما يحلل جمال الاستعارة، ويبين الفرق بينها وبين التمثيل وهو في كل ذلك إنما يستعين بالشواهد والأمثلة ويعلق عليها بما يدل على نفاذ فكره وإقامته في النقد والبلاغة وحسن التذوق.

كما أرسى الشيخ عبد القاهر أركان علم المعاني في كتابه "دلائل الإعجاز" كذلك أوضح في أسرار البلاغة كثيرا من أسرار الجمال في الصورة الأدبية وبين معالم التشبيه والاستعارة، وكان له فضل كبير في تحديد معالم الفن الذي عرف فيما بعد بالبيان، وهو كما يعتقد علماء البلاغة من أكثر العلماء توفيقا في هذا المجال ويعد من أحسن من استعان على التذوق وتحليل أسرار الجمال بالعقل والعلم والمنطق. لقد تبوأ الجر جاني هذه المنزلة الرفيعة في تاريخ البلاغة العربية بأمرين:

أولهما: أنه اتجه بالبلاغة نحو التفنن وتحديد المعالم فكانت له في الدلائل نظرة كاملة في المعاني وكان له في أسرار البلاغة نظرة كاملة تقريبا في علم البيان.

ثانيهما: أنه ألف بين العلم والذوق واستعان بأحدهما على الآخر، فهو في تحليله للشواهد والأمثلة إنما يأخذ بأيدينا ليوقفنا على الجمال بشعورنا وإحساسنا ثم يأخذ بأيدينا ثانية ليقنعنا بصدق شعورنا وإحساسنا بالجمال إقناع العقل والمنطق بعد إقناع الشعور والإحساس واطمئنان النفس والقلب[66].

يقول الدكتور شوقي ضيف" ولعبد القاهر مكانة في تاريخ البلاغة إذ استطاع أن يضع نظريتي علمي المعاني والبيان وضعا دقيقا في كتابيه "دلائل الإعجاز" و أسرار البلاغة[67]. ويضيف قائلا: على نحو ما وضع عبد القاهر نظرية المعاني، وضع أيضا نظرية البيان لأول مرة في تاريخ البلاغة العربية، وحقا أن كل

([65])دلائل الإعجاز ص 49.48

([66]) المؤجز في تاريخ البلاغة ص 102

([67]) البلاغة تطور وتاريخ ص 16

النصوص التي بحثها سبقه إليها البلاغيون بالبحث، ولكنهم لم يحرروها ولم يبحثوا دقائقها على نحو ما بحثها وحررها عبد القاهر في كتابه "أسرار البلاغة" فقد ميز أقسامها وفروعها وحلل أمثلتها تحليلا بارعا[68]. والباحث المدقق يحس ويعتقد أن الاتجاه الذي اتجه إليه عبد القاهر بألوان البلاغة كان أمثل اتجاه وأحسنه وأجله وأعوده على هذا العلم.

الزمخشري[69]

لقد ألف الزمخشري كتبا كثيرة من مثل "الكشاف، ومعجم أساس البلاغة، وكتاب المفصل والمشهور في النحو" وقد تسلم الزمخشري إرث الجرجاني وما اشتمل عليه من آراء بلاغية التي شرح الجرجاني بها وجوه الإعجاز في كل ذلك ما يرضي نزعته العقلية.

وكان الزمخشري امتدادا لعبد القاهر في منهجه وطريقته بكل ما جاء في كتابيه الدلائل والأسرار، فقد طبق الزمخشري كل ما فيهما من قواعد مستشهدا بما فيهما من صور بلاغية من آيات القرآن الكريم، وهو أول من قسم البلاغة إلى معاني وبيان، فيسمي كلا منهما علما[70]، وعلى هديه سار العلماء من بعده فاستعملوهما (أي المعاني والبيان) بعد أن كان السابقون يستعملون البلاغة والفصاحة والبيان على أنها ألفاظ مترادفة كما هو الأمر عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، وسار الزمخشري على منهجه في تحليلاته العقلية وتطبيقاته حتى قيل إن الزمخشري متمم لعمل الجرجاني في البلاغة، والحق أن بينهما صلة واضحة وشبها يتجلى في ثلاثة أمور ذكرها الدكتور مازن[71]:

أولا: إن كلا من الزمخشري والجرجاني ذو نزعة عقلية وتفكير لفظي وأسلوب منهجي،

ثانيا: إن كلا منهما أديب يتذوق الجمال ويحسه ويحاول عن طريق العقلوالمنطق أن يجد المسوغ المعقول لجمال ما يستحسن وقبح ما يستهجن.

ثالثا: إن البلاغة عند كل منهما لم تكن بلاغة جافة قائمة على الحدود والتعريفات، وإنما كانت بلاغة تطبيقية تحيا في النماذج البليغة وتلتصق بالنصوص الأدبية، وإن كلا منهما حاول أن يأخذ بيدك لتفتح قلبك وعينيك على الجمال ويثير فيك الرغبة في تذوقه تذوقا تطمئن إليه النفوس.

قال الدكتور شوقي ضيف: إن الزمخشري استوعب كل ما كتبه عبد القاهر في أسرار البلاغة ودلائل

([68]) البلاغة تطور وتاريخ ص 16

([69]) هو أبو القاسم جار الله محمد بن عمر، ولد بزمخشر، وتوفي سنة سبع وستين وأربع مائة من الهجرة، انظر ترجمته في: معجم الأدباء:247/7، بغية الوعاة ص 388، إنباء الرواة 265/3، البلاغة نشأتها وتطورها ص 332، البلاغة تطور وتاريخ ص221

([70]) المؤجز في تاريخ البلاغة ص 106

([71]) المرجع نفسه ص 107

الإعجاز، ومضى يطبقه تطبيقا على آي الذكر الحكيم وكأنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة من آراء عبد القاهر إلا ساق عليها الأمثلة من القرآن، ولم يقف عند ذلك فقد مضى يتم هذه الآراء، خاصة ما يتعلق بمباحث علم المعاني والبيان، التي أكمل كثيرا من شعبها ودقائقها إكمالا سديدا[72].

عصر الجمود:

لقد تبين مما سبق أن البلاغة ازدهرت عند عبد القاهر الجرجاني والزمخشري، والذين جاؤا بعدهما كان عملهم مقتصرا على فكرتهما، وكان عمل المتأخرين في أكثر الأحيان تلخيصا وشرحا ومن الذين عمدوا إلى هذا التلخيص والاختصار الفخر الرازي[73] الذي ألف كتابه "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" وهو تنظيم وتبويب لما كتبه عبد القاهر في صورة تنضبط فيها القواعد البلاغية، وتحصر فروعها وأقسامها حصرا دقيقا ثم جاء بعده السكاكي[74]، وهو إمام في العربية والمعاني والبيان والأدب والعروض والشعر متكلم فقيه متفنن في علوم شتى، فألف مؤلفات كثيرة من أهمها: "المفتاح" وهو غرة مصنفاته، وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام:

الأول للصرف والثاني للنحو والثالث للبلاغة وما تحتوي عليه من علوم المعاني والبيان والبديع وما يلحق بهذه العلوم من قافية وعروض، وألحق بهما نظرة في الفصاحة والبلاغة ودراسة المحسنات البديعية واللفظية والمعنوية وشهرته إنما طارت بالقسم الثالث من الكتاب الخاص بعلمي المعاني والبيان ولواحقهما من الفصاحة والبلاغة والمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية، كما قال الدكتور شوقي ضيف: "الذي وصفه السكاكي من تقسيم للعلوم البلاغية هو الذي أخذ به علماء البلاغة من بعده وهو الذي استقرت عليه هذه العلوم إلى يومنا الحاضر، ولكن العلماء بادروا إلى شرح وتوضيح ما ذهب إليه السكاكي من تعقيد وعملوا على تنقيتها من الشوائب المنطقية والفلسفية ولكن كلهم كانوا متأثرين بأصل الكتاب ومنهج السكاكي، فلذلك بقي كتابه مفتاح العلوم محورا للتأليف وظهر حوله عدد كبير من المؤلفات والكتب من الشرح والإيضاح والتلخيص والتهذيب[75].

([72]) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص 143

([73]) هو فخر الدين محمد بن عمر الرازي، توفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة من الهجرة، انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات248/4، شذرات الذهب 21/5، وفيات الأعيان 33/5

([74]) هو سراج الدين أبو يعقوب محمد بن علي السكاكي، ولد في خوارزم توفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة من الهجرة، انظر ترجمته في: معجم الأدباء:59/20، شذرات الذهب:122/5،

([75]) البلاغة تطور وتاريخ ص 335،

وقد رأى القزويني[76] فائدة في تلخيص هذا الكتاب فوضع له ملخصا كما قال: وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذي صنفه العلامة أبو يعقوب السكاكي أعظم ما صنف فيه الكتب المشهورة لكونه أحسنها ترتيبا وأتمها تحريرا وأكثرها للأصول جميعا، ولكنه كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد، قابلا للاختصار ومنتظرا على الإيضاح والتجريد، ألفت مختصرا ما فيه من القواعد ويشتمل على ما يحتاج إليه من الأمثلة والشواهد، وسميته تلخيص المفتاح[77]، ولكنه لما رأى أن هذا التلخيص لا يفي بالغرض فعاد ليضع كتابا آخر وسماه الإيضاح وإن كان هذا الإيضاح لم يخل من بعض العسر والأسلوب الفلسفي لكن هذا التهذيب آخر ما عرفناه من الثمرات المتصلة بكتاب المفتاح وأحسنها ترتيبا وأكثرها وضوحا.

هكذا صارت البلاغة متطورة عبر قرون وتاريخ طويل حيث إنها كانت صفة الكلام الجيد والقول المبين إلى أن أصبحت علما ذا قواعد وأحكام وفروع وأقسام وقد نشأت وترعرعت في مواكب علوم القرآن واللغة والأدب والنقد وكانت موضوعاته بين الدراسات القرآنية والأدبية والنقدية.

****

المراجع والمصادر

- القرآن الكريم
- أثر النحاة في البحث البلاغي، للدكتور عبد القادر، دار نهضة مصر للطبع والنشر بالفجاله، القاهرة
- الأعلام قاموس تارجم لأشهر الرجال والنساء منالعرب والمستعربين والمستشرقين لخير الدين الزركلي الطبعة الثالثة.
- إنباء الرواة على أنباء النحاة، لجمال الدين البياتي، تحقيق محمد أبو الفضل، دار الكتب المصرية القاهرة، 1396هـ
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ) مطبعة السعادة، القاهرة
- البلاغة تطور وتاريخ، للدكتور شوقي ضيف، الطبعة الثالثة دار المعارف مصر.
- البلاغة العربية، للدكتور أحمد مطلوب، المكتبة الوطنية بغداد، 1980م
- البلاغة العربية ليسد نوفل، مطبعة السعادة 1948م
- البلاغة عرض وتوجيه وتفسير، لمحمد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر عمان.
- البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255هـ) تحقيق عبد السلام هارون، 1388م
- تاريخ بغداد أو مدينة السلام، للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت 463هـ) دار الكتاب العربي.
- دلائل الإعجاز لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت392هـ) القاهرة 1339هـ

(76) هو جلال الدين محمد القاضي سعد الدين عبد الرحمن القزويني الشافعي ولد بالموصل وتوفي سنة ست وستين وست مائة من الهجرة.

(77) انظر تلخيص المفتاح:3/2

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد البكري الحنبلي، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، دار ابن كثير دمشق، 1406هـ
- الصناعتين، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت395هـ) تحقيق محمد علي البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، 1371هـ
- طبقات فحول الشعراء، لأبي عبد الله محمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.
- فوات الوفيات والذيل عليها، لمحمد بن شاكر الكتبي (ت764هـ) تحقيق احسان عباس، دار صادر بيروت، 1974م
- الفهرست، لمحمد بن اسحاق بن النديم، تحقيق الدكتورة ناهد عباس عثمان دار قطري بن الفجاءة الطبعة الأولى، 1985م
- الكافي في العروض للخطيب التبريزي(ت 502هـ) تحقيق عبد الله الحساني، دار الكتاب العربي القاهرة، 1969م
- الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (285هـ) الطبعة الأولى، مطبعة التقدم العلمية، 1323هـ
- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، لعبد الرحمن بن أحمد (ت 963هـ) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،القاهرة، مطبعة السعادة، 1367هـ
- معجم الأدباء (إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب) لأبي عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي (ت626هـ) دار إحياء التراث العربي، 1355هـ/1357م
- الملل والنحل للشهرستاني،دار الكتب العربية
- المزهر للعلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت. 1986م
- المؤجز في تاريخ البلاغة للدكتور مازن مبارك، دار الفكر
- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء لأبي عبد الله محمد بن عمران بن موسى، نشر الكتب العربية، 1343هـ القاهرة
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لجمال الدين أبي المحاسن الأتابكي، دار الكتب القاهرة.
- نزهة الألباء لأبي بركات كمال الدين أحمد الأنباري، دار نهضة مصر للطبع والنشر تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم.
- الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت764هـ) بإعتناء رمزي بعلبكي ألمانيا الاتحادية، 1404هـ
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين ابن خلكان (ت 608هـ) تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت.

الأستـــاذ أحـمـــد أمـــين المصري

(صرح الثقافة الأدبية في العصر الحديث)

الدكتور معراج الدين الندوي[78]

عـاش الأسـتاذ أحمـد أمـين للعلـم والأدب ، وشـق لنفسـه سـيرة ثقافيـة نـادرة ، فكـان علمـه لأجيـال متعاقبـة مـن شـباب الأمـة المسـلمة ، وكانـت ثقافتـه الرفيعـة ملكـا لقطاعـات أوسـع شـملت النخبـة العربيـة المثقفـة ، حيـث أعطـى الأسـتاذ أحمـد أمـين جهـده لمصـر مـن خـلال مشـروعه الرائـد "الجامعـة الشـعبية " حيـث أخلـص الأسـتاذ أحمـد أمـين في عملـه عنـدما تـولى بعلمه وثقافته الواسعة " الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية" .

أمـا فضـله على اللغـة العربيـة فقـد تجـاوز كـل الحدود،فأسـس "لجنـة التـأليف والترجمـة والنشـر" التي قـدمت عيـون التراث العربـي، والفكـر الإسـلامي القـديم والحـديث والتي اسـتمرت في عملهـا دون توقـف قرابـة ثلاثـة عقود،فتركـت للفكـر العربـي صـرحا شـامخاً . أمـا فضـل الأسـتاذ أحمـد أمـين على الفكـر الإسـلامي الحـديث ، فقـد تجـاوز حـدود العـالم العربـي و اتسـع ليشـمل العـالم الإسـلامي مـن مشـارق الأرض ومغاربهـا فقـدم للإنسـانية أعمالـه الرائـدة في التاريخ والفلسفة الإسلامية والأدب العربي بصورة غير مسبوقة،ولآفاق لم يصل إليها أحد.

وصف الأستاذ أحمد حسن الزيات صديقه الأستاذ أحمد أمين بقوله :

"كـان أحمـد أمـين متضـلعا فـي علـوم الـدين واللـغة كـأكثر النبهـين مـن المتخـرجين في الأزهـر ، ولكنـه كـان مـن الأزهـريين القلائـل الـذين أوتـوا دِقـة النظـر ، و حريـة الفكـر و سـعة الأفـق ، في الـدين صـاحب اجتهـاد، وكـان في اللغـة صـاحب رأي .كـان همـه فـي الكتابـة أن يقـرر ويقنـع ،لا أن يـؤثر و يُمتـع،و لعـل منشـأ ذلـك فيـه أن عقلـه كـان أخصـب مـن خيالـه ، وأن علمـه كـان أكبـرمن فنـه،وأن حبـه للحريـة والصـراحة كـان يجـيب إليـه ارسـال النـفس عـلى سـجيتها مـن غـير تقييـدها بـأسلوب معين،وعـرض الفكـرة عـلى حقـيقتها مـن غيرتمـويهها بوشـى خاص،ومـع ذلـك كـان لأسـلوبه طابعـه

[78]- رئيس التحرير لمجلة " التلميذ " تصدر عن وزارة التعليم العالي جامو و كشمير

المميزوجاذبيته القوية تقرأه فلا تروعك منه الصور البيانية الأخاذة ولا الأصوات الموسيقية الخلابة،انما تروعك منه المعاني المبتكرة الطريفة،والآراء الصريحة الجريئة ،والشخصيةالقوية المهيمنة ، فأنت منه بإزاء عالم يبحث لينتج،أو مصلح يصف ليعالج،لا بإزاء مصوّر يلوّن ليعجب أو موسيقار يلحن ليطرب على أنه كان يتوخى الجمال أحيانا في الأسلوب بحكم الأثرالذي تركته فيه درايته للقرآن والحديث،وروايته للشعر النثر ، و دراسته للبيان والنقد فيجمع بين سن الفكرة وجمال الصورة ، ويلائم بين رزانة المعنى و رصانة اللفظ".[79]

وتلك الصفات التي يحددها الأستاذ أحمد حسن الزيات في صديقه الأستاذ أحمد أمين تدور كلها على طابع الأديب الذي ساد أغلب أعماله ،بل إن أعمال الأستاذ أحمد أمين في الأدب العربي أخذت منهجا قريبا ، بل تسديد الصلة بمنهج الفكر ، فجاءت أعماله الأدبية نماذجا من البيان المطبوع الذي يشرق بنور العقل ،وينبض بروح العاطفة ،ويزهو بألوان الفن.

ذلك الأستاذ أحمد أمين الناقد بالمعنى الأخص للأدب أما الأستاذ أحمد أمين الناقد بمعنى الأدب الأعم فقد كان أعظم شأنا و أبلغ أثرا و أرفع مكانة و حسبه أنه حلّل الحياة العقلية للعرب والمسلمين في كتبه " فجر الإسلام وضحاه و ظهره " تحليلا لم يتهيأ مثله لأحد من قبله. وستظل هذه الكتب الخالدة شاهدة على الجهد الذي لم يكل ، والعقل الذي لم يضل ،والبصيرة التي نفذت إلى الحق من حجب صفيقة .

لقد كان الأستاذ أحمد أمين ناجحا في حياته العقلية والأدبية وكان نجاحه فيها للجد وفوزا للفضيلة لأنه لم يعتقد في شهرته الأدبية والعلمية على الإعلان ولعل الباحث لا يجد تلازما بين شيئين أشد مما هو بين الأستاذ أحمد أمين وما كتب فقد اذا ألف كتابا أو أنشأ مقالا أو ترجم فصلا ظل باقيا وراء كلماته وخلال سطوره،يعرض الضوء ويقرر الآراء بطلعته الباسمة في غير افتراز،ولهجته الحازمة في غير أمر ، وعقله القوي في غير

[79] وحي الرسالة – لأحمد حسن الزيات ، جـ 4 ، صـ 46 - 47

صلف،وطبعه الحي في غير ضعف،أسلوبه الهادي في غير فتور فلا يدري القارئ أيقرأ أم يسمع.

ويبدو أن الأستاذ أحمد أمين قد هيّأ نفسه لهذه المهمة منذ الصبا والشباب فقد اتصفت حياته بالطموح الرفيع إلى تحقيق المثال الأعلى في البحث والدراسة والنقد ، وهي خصلة دفعته دفعا إلى كفاح علمي عنيف استهله بتثقيف نفسه ثقافة عميقة بالمعرفة القديمة والحديثة وبمناهج القدماء والمحدثين جميعا.

وكان يرى أنّ اللغة أداة للفهم فلا بد أن تطوع لألسنة الناس و أن تجدد على طول الزمن . وكان رأيه في الأدب قائما على رأيه في الدين و رأيه في اللغة .

فالأدب تفكير مستمر يتأثر بالفكر العام و يؤثر منه ، والأدب تعبير متجدد يصور المجتمع الحاضر و يترجم عنه ، فطبيعته المرونة لا الجمود،وغايته الحق لا الجمال ،وعدته الانطلاق لا الفن.ذلك لأنه كان من الكتاب العقليين الذين يزاولون الكتابة من علم لا عن سليقة ، ويتخذون الأدب وسيلة لا غاية.

ولذلك نجد في أعمال الأستاذأحمد أمين تجسيدا للرؤية النقدية للمجتمعات العربية و أوجه الحياة المختلفة بها،وخاصة جانبها العقلي أو الثقافي . فيقول الدكتور زكي المحاسني :

"إن مقالات أحمدأمين ومؤلفاته يمكننا أن نعتبرها نقدا للحياة و المجتمعات التي درسها وبحث في مظاهرها العقلية و تقاليدها الإسلامية والعربية في العصورالزاهرة وفي العصر الذي عاش فيه وشهد ازدحام الحوادث السياسية والفكرية ولكنه لم يكن ناقدا بالمعنى الفني المعروف ويخيل إلى أن أحمد أمين كان يجد في ظلال نفسه وأعماقه ميلا إلى التأليف في موضوع النقد الأدبي، فوضع كتابا فيه ".[80]

وأيّا كانت النتائج فالذي لا شك فيه أن الأستاذ أحمد أمين الأديب قد وصل إلى غايته ووجد نفسه في الحياة العقلية الإسلامية ،وأهدى بكتبه ومقالاته الأدبية والنقدية في الحياة العقلية الإسلامية ،إلى الأدب العربي كنزا عقليا وجهدا فكريا لا ينسى.

[80] أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث – صلاح زكي أحمد- صـ 119

إن الأستاذ أحمد أمين كان بناء بكل هذه الكلمة من معان ، فقد ملكت هواه هذه النزعة دون سواها،ونعنى بها نزعة البناء والتشديد فوقف عليها فكره وجهده ، فهو بناء من نوع خاص وصفه الكاتب والأديب الكبير محمودتيمور:

إن الأستاذ أحمد أمين إجتماعي عصره وواقعي عملي،اذعنت له فكرة رسمها في ذهنه أدق رسم،وجعل لها خطة محكمة وقدرلها كل ما يكون من أقدار ، ولا يكاد يمدّ يده ليضع الحجر الأساسي لهذه الفكرة ، حتى يكون قد استوشق من الأمر غاية الاستيشاق، وأحاطه بما يكفل له الرسوخ،فإذا بالبنيان تعلو دعائمه وإذا هوحصن للقرائح والعقول".[81]

و لم نعرف لأحد من المتقدمين طريقة في كتابة التاريخ على الطريقة الحديثة إلا ابن خلدون الذي صوّر في مقدمته كيف ينبغى أن يكتب التاريخ ، ولكنه عندما شرع في تدوين التارخ أصابته آفة القدماء فسار على نهجهم .

و لذلك فعندما شرع الأستاذ أحمد أمين في كتابة تاريخ الإسلام والمسلمين ،فإنه التزم في بحثه بأربعة جوانب رئيسية شاملة ،وهذه الجوانب هي :الناحية الإجتماعية والناحية العلمية والناحية الدينية والناحية النقدية.

و الباحث والقارئ لكل كتابات الأستاذ أحمد أمين الإسلامية لا يعنيه البحث عن التعرف على هذه الجوانب الأربعة ، فهي واضحة في كل جزء من أجزاء كتبه الإسلامية والأدبية.

فلنتوقف عند هذه الفقرة التي جاءت في كتابه"حياتي"ويتحدث فيها عن نفسه فيقول :

"إني غضوب حليم،شديد الخوف على سمعتي الخلقية فأنا أتألم أشد الألم من كلمة تنشر اذا مست خلقي ولكني واسع الصدرجدا فيما يمس آرائي وأفكاري فليس يحزنني نقد كتبي ولا نقد آرائي،بل أرتاح له واغتبط به اذااقتصرعلى حدود الرأي الفكر ولم يتعده إلى حدود الخلق".[82]

وعندما نعنى بمنهج الأستاذ أحمدأمين في كتبه ومقالاته تتبين لنا المتاعب التي ارتضاها في

---

[81] أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث – صلاح زكي أحمد- صـ 119

[82] **حياتي – للأستاذ أحمد أمين صـ 40-41**

تأليفه ،ولم نقرأ من فصل من فصول مؤلفاته الّا نحسّ أنّ الأستاذ أحمد أمين يدني الوثيق منها ثم يهذبه وينفي منه الملفّق والزائف ، ويقدمه إلى القراء خاليا من شوائب الملق والانحراف وقد يكون صادقة التطبيق،في كثيرمن الأمور.فيصل إلى قرائه من بعيد تهدجا ذا استطالات في جمل متتابعة بنفس واحد وعلى وتيرة قرائية غير متبدلة،وفي لفظهم ونطقهم ويطلع عليهم كل اسبوع في مجلة " الثقافة " بفكرة جديدة من فيض خاطره ، أو يرد نقدا بصراحة و رأي، فكنا نزداد تعلقا بهذا المفكر الناقد الذي حيّرنا أمرُه و مكانته بين أعلام الفكر والأدب والنقد،هل هو من المحافظين المجددين ،أو من المتعنتين الناقمين؟.

إن الأستاذ أحمدأمين الذي قلب نظره وتفكيره في عالم التاريخ والأدب،وأعطى الأمة العربية مجموعة كتبه التي تعد خير ميراث فكري حديث في اطار منهج نادر وحيد قد أظهر فيها قدرة فائقة في الدرس والتمحيص والنقد و التجارب وهو نفسه قداستطاع أن يضع على صفحاته عالمه الداخليّ وحياته النفسية والإجتماعية .

ويقول الأستاذ زكي المحاسني في محاضراته عنه:

"فهو قد روّق الأخبار والحوادث وجمع المصادر الكثيرة حتى استخلص منه الكتب التاريخية والأدبية والنقدية التي تعد مصادرجامعية للبحث والدرس في أدب العرب وعقليتهم خلال أربعة قرون من حياتهم الأولى".[83]

المصادر و المراجع

1 – الأستاذ أحمد أمين - حياتي ،دار المعارف بالقاهرة 2003 م

2 - الأستاذ أحمد أمين - ضحى الإسلام،مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة 1955م

3- الأستاذ أحمد أمين - فجر الإسلام ،النهضة المصرية بالقاهرة 1955 م

4- الأستاذ أحمد أمين - فيض الخاطر، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة 1949م

5- الأستاذ أحمد أمين - النقد الأدبي ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة1952 م

6- صلاح زكي أحمد - أعلام النهضة العربية في العصر الحديث.

7 – الدكتور محمد رجب البيومي- النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين .

8 – الدكتور زكي المحاسني - محاضرات عن أحمد أمين .

9 – مجلة المجمع العلمي العربي ،دمشق 1927م ،ج 7

[83] محاضرات من أحمد أمين – للدكتور زكي المحاسني – صـ 89

الشاعرالداعية الشيخ نور الدين ولي

رشيدفاتح القاسمي*

المدخل:

إن الشيخ نورالدين ولى من أفذاذ الكشامرة وأعلامهم، وهو أول شاعر إسلامي بها و رائد الشعر الزهدي باللغة الكشميرية، شاعر شعبي لم يحتل مكانه أحد سواه بعد، من مآثره أنه عالج الزهد الإسلامي الخالص و الحكمة الإسلامية المحضة في اللغة الكشميرية، حفظ الكشامرة شعره ووعوه و وأبقوه عبر العصور، وهو يعتبر من أعلام الدعاة الى الإسلام بها، فكان بجانب الأديب داعية عبقريا. وبهذ المعنى هو أحق أن يترجم عنه وعن أدبه في اللغة العربية.

اسمه و نسبه:

هو نور الدين ابن سالار الدين المعروف بـ الشيخ نور الدين نوراني والشيخ نور الدين ولي، الملقب بـ شيخ العالم وعلمدار كشمير (حامل راية كشمير).

يصل نسبه "إلى سورج ونشي" فرع القبيلة الشهيرة الهندية "راجبوت" وكان أجداده حكام المنطقة "كشتوار" وهي الان مديرية من مديريات جامو وكشمير. غادر جده الخامس أُوْغْرادِيْوْ المنطقة لاختلافه مع ابن عمه في أمر السلطة والتجأ إلى كشمير فاقام بـ ربون {رَبْوَنْ} بمديرية بدكام {بڈگام}مع أسرته حيث منحه حاكمها إقطاعية. عاشوها جيلا بعد جيل إلى "سلرسنز" و هو جيله السادس.[1]

اعتنق "سلرسنز" الإسلام على يد الزاهد الداعية ياسمن ريشي (م 1354) فسماه سالار الدين[2] وكان من مهنته بزَّازًا، فكان ميسور الحال، عاش حليما و رزينا[3]. وكانت تختلف إلى ياسمن سيدة اسمها سدرة لمعرفة بعض الأحكام الشرعية والاسترشاد وكانت زوّجت مع حارس القرية كِيْمْوهْ، كولكام، فمات عنها وولديه. وبما أن الريشي كان على علم بأمرهما فاشار عليهما بالنكاح. أخذا بالمشورة وتزوجا[4]

كانت السيدة سِدرة من نفس القبيلة التي كان ينتمي إليه زوجه سالار الدين وكان جدها الخامس أو السادس اخ أُوْغْرَادِيْوْ وكان ترك موطنه كشتوار مع اخيه والتجأ إلى كشمير كاخيه. ولكنه كان مات كل من اقرباءها وعشيرتها فكانت عند أبيها الرضاعي، ذهب أبوها الرضاعي إلى الداعية ياسمن ريشي وقال له ان لي ابنة رضاعية، توفي عنها كل من اسرتها وهي تنتمي إلى قبيلة أهل السلطة لكشتوار وأريد أن أنكحها مع شاب صالح نجيب. فأجاب بأن له أفضل فرصة عندي، لأن سالار الدين من نفس القبيلة وهو فتي كريم.[5] بدآ حياة عائلية وأنجبا عبقريا ومنقطع النظير في العلم والفضل والدعوة والأدب والإرشاد.

مولده:

ولد الشيخ نور الدين ولي في العاشر من شهر ذي الحجة سنة سبعمأة وتسعة وسبعين من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام الموافق التاسع من أبريل عام ألف وثلثماة وثمانية وثمانين للميلادي.[6]

نشأته:

نشأ الشيخ نشاة دينية وترعرع على حب العلم والمعرفة وذلك لأن أبويه كانا حريصين على العلم والمعرفة، أمّا أبوه فبعد أن اعتنق الإسلام أرسله شيخه إلى رجل الدين والداعية الشهير السيد حسين السمناني (م1422) لتلقى العلم وتربية الأخلاق[7] وكان السمناني مبعوثا للدعوة من السيد علي الهمداني[8]. وأمّا أمّه سدرة فقد كانت ميّالة إلى الدين، كانت تذهب إلى الداعية ياسمن وتتربى عليه، إذا تولّد الشيخ ما رضع أمه إلى ثلاثة أيّام، فقلق أبواه وتضايقا، وذات يوم مرّت بهم "لَلْ" أشهر شاعره كشميرية ونابغة شعر الزهد فاخبروها عن الأمر، اعتضدته لَلْ قائلة": إذا ما استحييت من التولّد فمالك ان تستحي من الارتضاع، ثمّ دفعته إلى أمها سدرة وقالت لها هاكِ، ربيها، هذا وارثي من بعدي، وبعد ذلك بدأ يرتضع امه. واختلف الأراء في ديانة لَلْ فمنهم من يعتنق برأي كونها مومنة بينما يعتبرها البعض شيفية ومنهم من يرى أنها كانت مجذوبة [9]. والجدير بالذكر أن الشيخ ذكرها في شعر له فقدرها تقديرا:

پدمان پورچه للے

تمه امرت گله گله پوو

سو سانی اوتار لولے

ہوتھ مه ور دتو دوو[10]

الترجمة: شربت لَلْ - التي تنتمي إلى بدمانبور - من كاس ماء الحياة (المعرفة) وتجرعت جرعات وكان حضنها أجدر أن يتربى فيه أولياء الله وعارفوه .

فقد الشيخ أباه في طفولته فوقعت مسئولية كفالته وتربيته على عاتق أمه سدرة، وفي هذه الأيّام زار كشمير الداعية الكبير والواعظ الفارسي الشهير السيد علي الهمداني (1314-1385) فحضرته أمه سدرة مع ابنها. هذا، وكان دون الخامسة من عمره، فلاحظه الهمداني ولاح له مواهبه الخلقية، ففوض أمر تربيته إلى شقيقه العارف الداعية السيد حسين السمناني[11] و إنّ السيد السمناني كان أحد رجال الدعوة المبعوث

من السيد الهمداني. وبالإضافة إلى هذا بدات أمه ترسله إلى كتاب محلّي لتعلّم علم الدين، وكان الشيخ منذ نعومة اظفاره مائلا إلى الزهد وكان يعيش عيشة زهدية بعيدا عن اللهو. حيث يقول مولّف تاريخ الأدب الكشميري الجديد.

"وعلى الرغم من ازدياد عمره يوما فيوما.. ... ... كان يحب الخلوة والعزلة مكبّا على الحكمة والمعرفة الروحية، فزوجوه - ليهتم بأمور عائلية ويعيش عيشة اجتماعية ويخرج من الغرق في التفكير- مع سيدة مسماة بـ "زاي" فولدت ابنا اسمه حيدر وابنة اسمها زُوْنْ. ولكنه مع هذا ما تغير مزاجه واستمر على حاله غرقا في لمسائل الروحية وأسرار الوجود وأسباب النجاح فأصبح يظن أنه لا يمكن النجاح الأبدي والفوز بالسعادة الاخروي بدون انقطاع المرء من الحياة الإجتماعية".[12]

وواقعة زواجه حينما كان في السادس عشر من عمره. مات ابنه حيدر وابنته زون قبل البلوغ ومات مولوده الثالث إثر ولادته وكان الشيخ في الخامس وعشرين وقتئذ.[13]

حياته بمعزل:

ما زال الشيخ نور الدين مكبا على حياته الزهديه وجهز غارا في تلة من قريته "كِيْمْوَهْ" في 1407م كي يعيش حياة زاهدة هادئة ويقوم بإصلاح المجتمع ويروج الإسلام في الهنادك والشيفيين. والحقيقة التي لا تنكر ان عامة الناس كانوا يلتفتون إلى العلماء والدعاة الذين كانوا يجعلون مقرات دعوتهم خارج بيوتهم أكثر من الذين يبقون في بيوتهم العادية في القرى والمستوطنات انفعالا من الثقافة الدينية المتوارثة. وما كان الشيخ ليصلح المسلمين فحسب بل كان خطة عمله بالإضافة إلى هذا تبليغ الإسلام إلى من لم يعتنقوه فإنه بالرغم من دخوله الدولة كشمير وانبعاث نوره بها ما كان قد تمكن عند الشعب منزلة ومكانة بصورته الكامل وفكره الشامل كما كانت البيئة تترقب المزيد من انتشار ضوءه فكانت لائحته أوسع وأشمل بخصوص الدعوة.

كان الشيخ يسر أمر سكناه بالغار عن أهله كما كان يخفيه تابعوه. وذات يوم مر بهم راع فأخبر أم الشيخ فاتته و وعظته بترك الغار والعودة إلى أهله ولكنه لم يرض، رجعت أمه إلى البيت وأرسلت إليه زوجته لترضيه فذهبت ولم تستطع تركت طفليه عنده ورجعت إلى البيت، فأخذهما الشيخ ونوّمهما ووضع عليهما لحافا أو رداء، وإذا عادت أمهما ووجدتهما ميتين، فشاع الخبر أن الشيخ قتلهما وما كان الأمر كذلك بل كانا ماتا حتف أنفهما، فداهمت الشرطة. وإذا اقترب ناظر الشرطة من الشيخ طرأ عليه الخوف والتجا إلى الاعتراف بولايته والاستسلام له، فصحب الشيخ وانحاز إلى جماعته وتحلى بالتوعية الإسلامية وساهم في الدعوة مع شيخه فسماه الشيخ "تاج الدين". يعد إسلام تاج الدين حدث ذو أهمية كبيرة في حياته الدعوية

كما يعتبر كرامة من كراماته[14] وان كرامة اولياء لحق.

مغادرته المعزل:

ما بقى الشيخ نور الدين في الغار منقطعا عن المجتمع اجتماعا كليا بل كان يأتيه تابعوه ومعتقدوه فكان يبلغهم الدين ويحثهم على هذا العمل المجيد، فخرّج من هنا جيلا من الدعاة. وعلى الرغم من هذه النشاطات لم يطمئن قلبه ولم تقر عينه لما فيه ضرب من الانحراف عن مزاج الدعوة الإسلامي ومنهاجه النبوي. حيث نجده يرفض الرهبانية والانقطاع إلى الغارات والغابات وهو أوّل من أنكر على الرهبنة من الزهاد المحليين وجعلها مضادة للاسلام وأوقف هذا العمل المتوارث من أقدم العصور ونقده نقدا لاذعا بقوله:

ونن پنزى ته واندر آســـن

گــگر گــوفن برن داس

يم پانژن وقتن اگه مل كاسن

نشه آسن باژن تمى چه خاص[15]

الترجمة: لا يسكن في الغابات إلّا القرد والربابيح وإنما تقبض الفيران على الغارات ومن يطهّر اعضاءه خمس مرات ويعيش مع أسرته فهو من نخبه العباد.

وتجدر هنا الإشارة إلى الانزواء الشائع في عصر الشيخ حيث نجد الهند في القرن الرابع عشر مملوءة من الرهبنة الهندوسية والبوذية[16]. كانت جماعات النساك تجول في الصحارى والغابات والجبال، ولم تكن تختلف أمر بلدة كشمير عن الهند فكانت بها تقاليد قديمة للرهبنة وكان يسمى الناسك باسم محلّي وهو "ريشي" كانت لهذه التقاليد أثر على الشيخ نور الدين فمارس الانزواء لابتغاء الكمال الروحية وتزكية الباطن والتقرب من الله سبحانه أو اختارها لجلب انتباه الناس إلى دعوته إلى الإسلام حيث نجده أكثر شهرة بعد جعل الغار مقرا له ومرجعا للناس.[17]

نشاطاته الدعوية:

وعاش الشيخ عيشة الانعزال عشر سنوات ونجده بعد خروجه منه على أهبة السفر طيلة حياته، حيث طاف كشمير بجل مناطقها وبقاعها لترويج الإسلام وإصلاح المجتمع البشرى. ترك المعزل عام 1406 أو 1407م ثمّ بدأ رحلاته الدعوية إلى كشمير الجنوبية فأسلم هنا بجهوده "بام الدين" وكان رئيس دير (آشرم) آريه وعالم الهندوسية الفذّ وصار اسمه بام الدين من اسمه الهندوسي بُمْ سادْ (معناه الراهب بم) فعلمه

الدين وجعله مسئولا للدعوة وديره مركزا له، كان هذا حدثا آخر ذا أهمية بالغة في دوره الدعوى الفعّال؛ لأن الراهب بم ساد كان معروف الصيت بالبلدة وكان له عدد كبير من تابعيه على عموم كشمير. وقد سبق أنه ما استصحبه بل فوّض إليه الأمر بمقره وكان حقيقا بأن يحترم لأن الخيار إسلاما خيارهم فيما قبله. الدير الذي كان برئاسة بُمْ ساد كان من أكبر أديرة الهندوس في المنطقة فأسلم على يد بام الدين جماعة من تابعيه.

وكان هنا دير آخر في كشمير الشرقية في سرينجر برئاسة الراهب تُوْلِيْ رَيْنَا ، إذا بلغ هذا الراهب نبأ إسلام بام الدين فبُهت واستعد للخروج إلى الشيخ نور الدين ليجادله في الأمور الإلهية ويهزمه فقصد إليه مع ثلاثمأة تابع له فوصل إلى كِيْمْوَهْ عند الشيخ فطرأه أسئلة فاجاب وأصاب، اعتنق تَوْلى رَيْنَهْ الإسلام ورجع مومنا.[18]

إن الشيخ نور الدين ولي ما أضاء وديان كشمير بنور الإسلام فحسب بل اجتاز حدودها إلى كشتوار، أسلم على يده هنا "زاى سنك" فسمّي بزين الدين، وكان زاي سنك من سكان بندار كوت كشتوار، انضمّ زين الدين بعد اعتناقه الإسلام إلى صف الشيخ وتعلم الدين فبلّغه وساهم في الجهود الدعوية مع شيخه .

كان الشيخ مكبا على نشاطاته الدعوية من جانب ويستشير مع تابعيه الدعاة[19] فكان حركته الدعوية تقدم إلى الأمام يوما فيوما ويزداد حيوية وانتشارا.

ومن أبرز من أسلم على يده من الهنادك بابا نصر الدين وكان اسمه الهندوسي "أُوْتُرْ" وبابا لطيف الدين وكان اسمه الهندوسي "لَدِيْ رِيْنَهْ". أمّا الأوّل فقصة إسلامه أنه كان مصاب بمرض المعدة وكان دائم القيئ، ابتلى به من أوّل يومه، فذهبت به أمه إلى الشيخ وشفاه الله فأصحبته معه فتربى على الشيخ ونشأ في مركز تربيته ومقر دعوته بكيموه[20]. من مزايا نصر الدين أن الشيخ خاطبه في شعره باسمه في عدة مواضع، فذاعت سمعته وبقى كجزء من شعره وسوف يبقى إلى ان يبقى شعره بكشمير وأدامه الله بها دوما. وأمّا الثاني فكان إقطاعيا من المنطقة "راجوار" وهي الآن من مناطق المديرية كبواره، سافر إلى سرينجر عاصمة البلد بمناسبة تتويج السلطان زين العابدين عام 1420م وكان الشيخ نزيل العاصمة آنذاك في أحد مراكزه الدعوية، كان مطبخ هذا المركز مفتوحا لكل جائع ومسافر وقاصد إليه. حضره تُوْلِيْ رَيْنَهْ كي يثمن خدمته ويثنى على عمله الرفاهي، وما خرج من هنا إلّا كان قلبه مطمئنا بالإيمان، فصدقه باللسان.[21]

والجدير بالذكر أن الداعية الشهير السيد محمّد الهمداني (م1450) إذا زار كشمير زيارة دعويا فحضر الشيخ نور الدين وبعد ان قاما بالتعارف، استفسر الهمداني عن المسلمين الجدد

بجهوده فاجابه هؤلاء الأربعة[22]. وإن هؤلاء الأربعة أدّوا دورا بارزا في مجال الدعوة، وحذوا حذو شيخهم، وأثرت أولوية الشيخ لهؤلاء ولبام الدين على وجه خاص آثارا بعيدة المدى. كان الشيخ نور الدين يفتخر بهؤلاء الأربعة السعداء حيث يقول:

بمه نصـــرته بابا زينو

لطيف رنبه ؤنو چُهـــس

خداے دژام تروٹاه سبزنو

يمه ميانى به ہند چُهس[23]

الترجمة: إن نصر الدين وبام الدين و زين الدين و لطيف الدين كل منهم عبارة عن جمال الروحية وقد نظمت كل الأربعة في سلك واحد، إن لي ورثة وهم هؤلاء، أنا منهم وهم مني.

عصره الدعوي:

عاش الشيخ العصر الذي كان شهد الصراعات السياسية والعسكرية والتدمير وانتشار العنف وتدهور الاقتصاد[24]، في نهاية القرن الثالث عشر هاجم على كشمير ذو الجو وهو من التتار المغولي السفاكين، فدمّرها تدميرا لا تكاد تعمر مرة أخرى[25]، وقد اقيمت دعائم المملكة الإسلامية بها في عام 1320م من السلطان صدر الدين (م1323) وهو أوّل حاكم اعتنق الإسلام وكان حاكما بكشمير، ولم تمض ثلث سنوات إلّا انتهت وعادت إلى ورثة سِهْ دِيَوْ الذي كان حاكمها قبل السلطان صدر الدين، فبقيت عشرين سنة في حكمهم فلا يزال الواقع متوتّرا والفوضى سائدا. استولى عليها شاهمير (م1389) وكان أحد وزراء سِه دِيْوْ بعد مضى عشرين سنة تحت حكمهم. فلقب بـ "شمس الدين"، فكما كانت سلطتهم تقدم إلى الأمام بدا الواقع يصلح للدعوة ولكنها تخلّصت من التذمر السياسي في عهد السلطان قطب الدين الممتد من 1373 إلى 1379. انقلب الجو فيه من التشاؤم إلى التفاؤل. ولا تزال السلاطين الشاهميريّون يحكمها إلى القرنين ونصف القرن تقريبا، وصاحبنا المترجم له وليد هذا العصر المتخلّف السائر إلى التطور والتقدم.

من مأساة تاريخ كشمير أنه لم يؤثر عن هذا العصر الذي عاشه الشيخ نور الدين ولي ما يتضح به وضع مجتمعه وضوحا كاملا، بيد أن الكشامرة لهم سبق الغايات في كتابة التاريخ، حيث يعتبر التاريخ "راج ترانكني" (قصه الملوك) من اقدم الكتب التاريخية في التاريخ البشرى. وقد كتبه "كَلْهَنْ بَنْدِتْ" في القرن الثاني عشر الميلادي. إلّا أن التاريخ هو عبارة عند الكشامرة عن قصص الملوك فحسب كما يظن الكاتب الكشميري غلام نبي مقيم، وهو يقول: "إن تاريخنا لا يمثل عن قومنا بل سجل مآثر ملوكنا وسيطرتهم علينا فحسب ولا

نجد فيه عن سياق تمدّننا ووضع اقتصادنا" ولا سيما القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي.[26]

صلته بالسيد محمّد الهمداني:

من مزايا هذا العصر المسمى بالعصر الشاهميري أنه شهد الرحلات المتتالية للدعاة الفرس تحت قيادة الشيخ السيد على الهمداني (م1373) ونجله السيد محمّد الهمداني (م1450). زارها السيد علي الهمداني في عهد السلطان شمس الدين (712-743) ثمّ جاء في عصر السلطان قطب الدين (733-781) وكذلك اتجه نحوها في حكم السلطان سكندر (781-807) وكان السيد الهمداني بمرافقة سبعماة صاحب له من العلماء والمبلغين والمفسرين والعارفين والمحدثين[27]، استوطنو كشمير ودعوا أهلها إلى الإسلام، فأدوا دورا فعالا في الدعوة وأثروا على حياة الكشامرة الفكرية والدينية تاثيرا وصبغوها بصبغتهم في الماكل والمشرب والملبس[28]. وكان من أصحابه السادات بجانب أهل العلم والفضل أهل الحرف المتختلفة، فاستمروا يحترفون بحرفهم بها كما علموها أهلها، فبدأت تتغير بيئتها وتتشابه ثقافتها بثقافتهم الإيرانية.

وفي نفس العصر، عصر السلطان سكندر اتجه نحوها محمّد الهمداني بأمر أبيه العالم الرباني السيد على الهمداني بمرافقة ثلثماة نفر[29]، فازداد الإسلام انتشارا بجهود هذه البعثة الهمدانية وبقى السيد محمّد الهمداني بكشمير اثنى عشر عاما، ثمّ قصد إلى المكة المكرمة للزيارة وبعد الفراغ منه سافر إلى ختلان فتوفى فيها عام 1450م.[30]

كانت للسيدين صلات قوية بالسلاطين الكشامرة[31] وقد نشات بينهم الألفة بالله وبالإسلام وبجهودهم الغالية، وكانت الروابط انعقدت بين محمّد الهمداني والشيخ نور الدين ولي إثر دخوله كشمير حيث لقيه الهمداني بمقر دعوته بـتشرار{چرار}[32]، وكان أمره بهذا اللقاء أبوه السيد علي الهمداني. السادات الهمدانيون كانوا معروفي الصيت كما كان لهم مفاخر ومآثر في الدين والدعوة والتصنيف، فحضور السيد محمّد الهمداني إلى الشيخ نور الدين ينبئ عن مكانه المرموق في الدين ودوره الهام في المشهد الدعوي لعصره.

مبايعته السيد محمّد الهمداني:

إن اللقاء هذا هام جدا لأنه يكشف الستار عن حقائق مهمّة وعن شكوك شائعة حول صاحبنا على أفواه الكشامرة في كونه أميا أو ثقيفا وهل كان بحاجة إلى مرشد في تزكية الباطن أم كان وليا منذ ولدته أمه، وما إلى ذلك مما جعله فوق البشر العادي العالم العارف بالله والداعية الفذّ. وسنذكر الوثيقة التي قيّدت هذا اللقاء وهي في الأصل سند المبايعة. شهدت التجربة أن مجرد غزارة العلم لا تكفى في تربية الإنسان تربية دينية وتعديل الأخلاق لا تكاد تحصل لرجل إلّا أن يتأسى في حياته بأسوة رجل من رجال الله ويجلب إلى

نفسه ذلك المذاق السليم الذي وفق له ذلك الرجل، نظرا إلى هذا بايع الشيخ السيد محمّد الهمداني وجعله مرشدا له على سلسلته الكبروية بالرغم من كونه على مكان رفيع من المعرفة والروحية كما يفهم من سند البيعة ونص إجازة المبايعة على السلسلة المذكورة، وألحّه الشيخ إلحاحا للبيعة. تزيل هذه الشهادة مغالاة الغالين في شخصيّة الشيخ حيث جعلوها أسطورة من الأساطير تكاد تبدو إله من الهة الوثنيين.

نص الوثيقة التي يحتفظ البيعة مذكور أدناه مع مقدمة وجيزة:

"اعلم ان البيعة من سنن الأنبياء عليهم السلام ومن الخلفاء الراشدين وهي باقية إلى يوم القيامة بلا نكير، فلا يجوز لأحد من الاولياء والعلماء ادعاء الخلافة بلا الرخصة والبيعة باختياره إلّا ان يكون ماذونا ومرخصا بالتحقيق من الشيخ الكامل معنعنا إلى نبينا صلى الله عليه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وفقنا وسائر العباد باتباع طريق الهدى وحفظنا وجميع الاخيار من اقتداء أهل البدع والهوى وبلغنا طوائف المخلصين المحبين إلى اقصى المراتب، هي المعرفة الكبرى والصلوة والسلام على رسوله وحبيبه ونبيه وصفيه محمّد المصطفى وعلى آله الذين هم كالنجوم بايهم اقتدينا اهتدينا. أمّا بعد فيقول العبد الضعيف النحيف الجاني كثير التقصير والتواني محمّد بن علي بن الشهاب الهمداني عفى الله عنه بالفيض الصمداني.

اعلم أن المقصود من خلقه الإنسان معرفة الله سبحانه وتعالى كما يشهده بعض الآيات الكريمة والأحاديث القدسية والآثار اللطيفة والأخبار الشريفة، فالواجب على كل فرد أن يسعى لما خلق له والطرق إلى الله تعالى مما لا تعدولا تحصى لقوله عليه السلام الطرق إلى الله بعدد انفاس الخلائق ومن أقربها الطريق العالية الشريفة الكبروية الهمدانية المذهبية، الذي دل علي والدي علي الهمداني الحسيني - قدس الله سرّه - كما دلّ عليه المشائخ الذين اجازوه بالإرشاد، وهم ثلاثة وثلاثون كلهم من أكابرهم. وبعد فإن أخي الصالح العارف المكاشف المجاهد المشاهد المسمّى بنور الدين الريشي الكشميري الزاهد العابد أصلحه الله كما أصلح الصالحين وأحسنه كما أحسن الكاملين.

لما جاوز من حد الإلحاح وعجز كثيرا بلسانه أن يدخل في سلسلة العاشقين الكاملين كما دخل أسوة جماهير المبتدئين والمنتهين فاجزته بتوبة المريدين وترغيب الطالبين السالكين وتربيتهم وتعليم الأذكار كاربع الضروب لتصقيل القلوب عن كدورات المكائد والكروب وأخذ النذور والفتوحات وجلوس الخلوات الدائمة كالاربعينات القائمة وسائر ما يجب ويستحب في هذه الطريقة العالية للسادات.

وسبيله أن لا ينساني في الأوقات الشريفة المرجوة بعد الأحوال والأشغال.

قد حرّرت هذا ليلة الجمعة خامس وعشرين من شهر رجب سنة أربع عشر وثمانمأة في بلد كشمير صانها الله تبارك وتعالى مع سكانها عن الآفات والتدمير".[33]

بيد أن الشيخ نور الدين كان من أهل الكشف السعداء لم يعتبر نفسه مستغنى عن الاستفادة من عبقري عصره عندما ظفر بفرصة اللقاء معه، وهذا على من يكاد يجعله من الاساطير الهندوسية ويزعم أنه لم يكن له ليبايع على غيره في الروحية لما فيه من تقليل شانه، ومنهم من ينظرها بنظر الريبة ويظن أنه اعتراف بمكانه المرموق من الهمداني فحسب ولعله لم ينل حظا من اللغة العربية التي هي مكتوبة بها، حيث نجد فيها البيعة كما نجد فيها الاعتراف. وسبق أن قلت أن الشيخ تربى على السيد حسين السمناني الذي كان شقيق السيد على الهمداني فكان للشيخ صلة قوية سابقة بهم، وهذا أحد أسباب تمهدت سبيل بيعته معه بناء على الحب والاعتقاد.

ونظرا إلى هذا لا يستبعد ان الشيخ قد كان مستوحا بهذه العصابة للدعاة فحذا حذوهم، فانهم كما طافوا بالبلاد واجتازوا القارات تشرّد الشيخ وديان كشمير فأشرقها بنور الإسلام وجال ذري جبالها فمزجها بآثار الثقافة الإسلامية.

وفاته:

مما لا شك فيه أن البقاء لله الواحد القهار، وهذه هي الحقيقة لا بد من الاعتراف بها، فتصديقا لهذا الواقع الملموس جاء أوان رحلة هذا العبقري الفذ والمصلح الكبير والشاعر الشهير في السادس وعشرين من جمادي الآخر سنة ثماني مأة واثنيين وأربعين الموافق سادس عشر من ديسمبر سنة ألف وأربعماة وثمانية وثلاثين.[34]

مات رحمه الله تعالى وترك كشمير وشعوبها باكية بدموع دامية وخلّف من وراءه ملائين الألسنة تدعو له وملائين الأكباد تتفطر من رحيل هذا المرشد العظيم والمربى الربّاني الحليم الذي وقف حياته كلها على الدعوة وتزكية النفوس. صلى عليه بالناس مريده بابا زين الدين ولي وحضر الصلوة تابعوه والملك العادل "بدشاه" زين العابدين مع حاشيته كما شرك فيها أعيان العلم وتسعمأة ألف نسمة تقريبا.[35]

المراجع

١- گوہر، غلام نبی مقیم، صحیفه نور، ج١، گلشن پبلشرز، گاؤ کدل مدینه چوک، سرینگر ١٩٩٨ء، ص: ٣٠

٢- ساقی، موتی لال، نند ریش، خاص شماره شیراز جلد نمبر ١٥، جموں و کشمیر اکیڈمی آف آرٹ کلچر اینڈ لنگویجز، سرینگر طبع ثانی، سنة ٢٠٠٣ء، ص: ٨

٣- گوہر، غلام نبی مقیم، قائد عرفان، شیخ محمد عثمان اینڈ سنز، تاجران کتب سرینگر ٢٠١٦ء، ص: ٣٢

٤- منور ناجی و شوق شفیع، کاشر ادبک تواریخ، کشمیری ڈپارٹمنٹ کشمیر یونیورسٹی سرینگر، ١٩٩٢ء، ص: ٥٧

۵۔ ساقی، موتی لال، نندریوش، خاص شمار شیرازِ، جلد ۱۵، جموں و کشمیر اکیڈمی آف آرٹ کلچر اینڈ لنگویجز، سرینگر، دویم چھاپ، ۲۰۰۳ء، ص: ۹

۶۔ گوہر، غلام نبی مقیم، صحیفہنور، ص: ۳۰

۷۔ گوہر، غلام نبی مقیم، کاروانِ عرفان، شیخ محمد عثمان اینڈ سنز، تاجران کتب سرینگر ۲۰۱۶ء، ص: ۱۳

۸۔ گوہر، غلام نبی مقیم، صحیفہ نور، ص: ۱۰۲

۹۔ گوہر، غلام نبی مقیم، صحیفہ نور، ص: ۹۳

۱۰۔ گوہر، غلام نبی مقیم، صحیفہ نور، ص: ۳۸

۱۱۔ گوہر، غلام نبی مقیم، صحیفہ نور، ص: ۴۱

۱۲۔ منور ناجی و شوق شفیع، کاشر ادبک تواریخ، ص: ۵۸، ۵۹

۱۳۔ گوہر، غلام نبی مقیم، صحیفہ نور، ص: ۴۸

۱۴۔ گوہر، غلام نبی مقیم، قائد عرفان، ص: ۱۷۹

۱۵۔ نازکی رشید و محمد اسد اللہ، ریشیات، اکیڈمی آف آرٹ کلچر اینڈ لنگویجز سرینگر ۱۹۷۸ء، ص: ۶۲

۱۶۔ نازکی رشید و محمد اسد اللہ، مرتبین، ریشیات، اکیڈمی آف آرٹ کلچر اینڈ لنگویجز سرینگر ۱۹۷۸ء، ص: ۶۱

۱۷۔ گوہر، غلام نبی مقیم، صحیفہ نور، ص: ۷۲

۱۸۔ گوہر، غلام نبی مقیم، قائد عرفان، ص: ۵۳، ۶۱، ۶۳

۱۹۔ نازکی رشید و محمد اسد اللہ، مرتبین، ریشیات، ص: ۱۴۱

۲۰۔ گوہر، غلام نبی مقیم، قائد عرفان، ص: ۶۵

۲۱۔ گوہر، غلام نبی مقیم، قائد عرفان، ص: ۶۵

۲۲۔ گوہر، غلام نبی مقیم، کاروان عرفان، ص: ۴۷

۲۳۔ آفاقی، اسد اللہ، علمدار، گوڈنک شمار، مرکز نور، کشمیر یونیورسٹی سرینگر، اگست ۲۰۰۰ء، ص: ۲۷۲

۲۴۔ گوہر، غلام نبی مقیم، کاروان عرفان، ص: ۴۷

۲۵۔ حامدی کاشمیری، شیخ العالم حیات اور شاعری، ادارہ ادب، شالیمار سرینگر ۱۹۹۷ء، ص: ۲۰

۲۶۔ گوہر، غلام نبی مقیم، صحیفہ نور، ص: ۳۲۷

۲۷۔ قدیرہ سلیم، دکتورہ، مجلة القسم العربی جامعة بنجاب لاہور، باکستان، العدد التاسع عشر ۲۰۱۲ء، ص: ۱۴۴

۲۸۔ قدیرہ سلیم، دکتورہ، ص: ۱۴۴

۲۹۔ نازکی رشید و محمد اسد اللہ، ریشیات، ص: ۶۱

۳۰۔ گوہر، غلام نبی مقیم، قائد عرفان، ص: ۸۳

۳۱۔ نازکی رشید و محمد اسد اللہ، ریشیات، ص: ۲۲۱

۳۲۔ شاد رمضان، علمدار، گوڈنیک شمار، اگست ۲۰۰۰ء، شیخ العالم چیئر، کشمیر یونیورسٹی سرینگر، ص: ۱۹۴

۳۳۔ شاد غلام محمد، علمدار، گوڈنیک شمار اگست ۲۰۰۰ء ، شیخ العالم چیئر، کشمیر یونیورسٹی سرینگر، ص: ۳۳۲، ۳۳۳، ۳۳۴

۳۴۔ گوہر، غلام نبی مقیم، صحیفہ نور، ص: ۸۴

۳۵۔ گوہر، غلام نبی مقیم، صحیفہ نور، ص: ۸۲

الاتجاهات والمناهج المعتمدة في تواريخ الآداب العربية والإسلامية

سيد علي حركامونبوري*

توطئة : الإطار الببليوغرافي لتواريخ الآداب العربية والإسلامية

لا بد لمن أراد أن يتعرف على الاتجاهات والمناهج المعتمدة في كتابة تاريخ الآداب العربية والإسلامية وخلفياتها أن يلم بتاريخ العرب من العصر الجاهلي مرورا بالعصر الإسلامي والراشدي والأموي والعباسي والأندلسي وحتى سقوط الدولة العثمانية سنة 1924م. ولا شك أن هذه الفترة طويلة ومديدة، إلا أنه يوجد في مكتباتنا كتب ودراسات عديدة تغطي هذه المساحة الزمنية العريضة وتلقي الأضواء على ما جرى فيها من أحداث وتطورات على مستوى السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة.

ولعل من أحسن هذه الكتب وأوفاها بموضوعه ذلك الكتاب الشهير الذي ألفه المؤرخ اللبناني الكبير فليب حتّي (ت 1978م) وعنونه بعنوان *History of the Arabs*[84]، ومن الجدير بالذكر أن حتّي قضى عشر سنوات طوال في تأليف هذا الكتاب، ورغم أنه كان عالما مسيحيا عاش في الولايات المتحدة وحاضر في جامعاتها، إلا أن كتابه لا يخلو من إنصاف ملحوظ وميل إلى الموضوعية في معالجته لموضوعه.

ومن الكتب القيمة التي تعطى القراء صورة واضحة عن خلفية الآداب الإسلامية من خلال إماطة اللثام عن تاريخ الإسلام والمراحل التاريخية التي اجتازها المسلمون وما كان لها من آثار في تكوين وجهاتهم النظرية وصياغتها وظهور اختلافاتهم المذهبية وترسيخها ذلك الكتاب الذي ألفه المستشرق البريطاني هاملتون جب (ت 1971م)، وإن كان غير موفق في اختيار عنوان مناسب لكتابه فقد سماه Mohammedanism[85] على طريقة البريطانيين المستعمرين، وهو عنوان مثير للجدل وغير مرضي لدى المسلمين. ومعلوم أن البريطانيين المستعمرين دأبوا على استخدام لفظة "محمدن" (Mohammedan) لوصف كل ما يتصل بالإسلام والمسلمين أو يمت إليهم بصلة، فكانوا يستخدمون لفظة "محمدن" مقام لفظة "مسلم"، ولذا كانوا يطلقون لفظة "المحمدين" على المسلمين، وكانوا ينعتون كل شيء له علاقة بالإسلام بنعت "محمدن"، ويكاد يكون هذا من خصائص الأدب الإنجليزي في عصر الاستعمار. فهذا ما دفع جب إلى أن يسمي كتابه بهذا العنوان الغريب، ونحن نرى أنه لا ينبغي لنا أن نعرض عن كتابه فقط من أجل هذه الغلطة التي تورط فيها والتي لم يسلم منها أكثر معاصريه من المستشرقين البريطانيين، بل علينا أن

* باحث دكتوراه (SRF) بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية.البريد الإلكتروني : syedalihur@gmail.com

[84]. ينظر: Hitti, Philip K. *History of the Arabs from the Earliest Times to the Present.* London: Macmillan, 1970.

[85]. Gibb, H.A.R. *Mohammedanism: A Historical Survey.* New York: Oxford University Press, 1962.

نتجاوز هذا العنوان الخادع ونحاول الوصول إلى لب الكتاب متجنبين القشور، ومن يفعل هذا يجد أن الكتاب لا يخلو من قيمة علمية، فقد تناول المؤلف فيه موضوعات هامة فكتب عن انتشار الإسلام في الجزيرة العربية[86] وما جاورها من البلدان، ثم تحدث عن السيرة النبوية[87] وعن القرآن[88] والسنة[89] والشريعة الإسلامية[90]. كما خصص فصلا لبيان كيفية ظهور الفرق والطوائف في الإسلام[91]، وكتب بالتفصيل عن التصوف[92] وطرقه[93]، وختم كتابه بفصل يتعلق بموقع الإسلام في العالم الجديد[94]. ومهما يكن من شيء، فهو كتاب مفيد ينصح بقراءته ففيه فوائد جمة للباحثين وإن كنا لا نتفق مع كل ما جاء فيه.

وهناك كتاب آخر في هذا المجال يوصى بقراءته لجودة مضامينه وحسن مباحثه، وهو الكتاب الذي ألفه ويلفريد كانتويل سميث بعنوان Modern Islam in India[95]، وقد تحدث فيه عن الحركات العلمية في الهند ولا سيما الحركة التنويرية التي ترأسها السير سيد أحمد خان والتي تمخضت عن إنشاء الجامعة الإسلامية في علي كره.[96] وكذلك تحدث عن أعلام آخرين من مثل القاضي سيد أمير علي[97] والشاعر الهندي العظيم العلامة محمد إقبال[98]، وألقى بعض الأضواء على التيارات الفكرية الأخرى في الهند[99] بأسلوب رائق وممتع.

نبذة عن بداية وتطور فن تاريخ الآداب العربية والإسلامية:

يعد كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان (ت 1914 م) في طليعة الكتب العربية التي تناولت موضوع تاريخ الأدب العربي بالتفصيل وعلى نحو الاستقلال والإفراد بالتصنيف. ولا غرو أن الذين تناولوا هذا الموضوع فيما بعد تأثروا بهذا الكتاب وتكونت نظراتهم الأولى إلى هذا الفن بما جاء في هذا الكتاب إلى

---

[86]. المرجع السابق، ص 1-22.

[87]. المرجع السبق، ص 23-34.

[88]. المرجع السابق، ص 35-52.

[89]. المرجع السابق، ص 72-87.

[90]. المرجع السابق، ص 88-106.

[91]. المرجع السابق، ص 107-126.

[92]. المرجع السابق، ص 127-146.

[93]. المرجع السابق، ص 147-164.

[94]. المرجع السابق، ص 165-192.

[95]. Smith, Wilfred Cantwell. *Modern Islam in India: A Social Analysis.* London: Victor Gollancz Ltd, 1946.

[96]. المرجع السابق، ص 14-46.

[97]. المرجع السابق، ص 49-54.

[98]. المرجع السابق، ص 98-127.

[99]. المرجع السابق، ص 157-303.

حد كبير. ومع أن جرجي زيدان له فضل الريادة في هذا المجال على مستوى الكتّاب العرب إلا أنه اعترف أن أول من اهتدى إلى التصنيف في تاريخ الآداب العربية على النمط الحديث هم الإفرنج المستشرقون[100]، وذلك في العصر الحديث، إذ لم يكن يعد علما مستقلا قبل ذلك.

فلما بدأ المستشرقون من الإفرنج يأخذون اللغة العربية بعين الاعتبار، شرعوا يؤلفون كتبا تتناول تاريخ آداب العرب، وأصبحوا بذلك الرواد الحقيقيين في هذا المضمار. ولذلك نجد أنه قد بات مقبولا بين أهل الاختصاص في هذا المجال أن المستشرقين هم السبّاقون إلى هذا العلم تأليفا وتحقيقا، وأنهم لعبوا دورا كبيرا في تأسيس أساسه ووضع أصوله ومناهجه.

ومما غرّز هذه الفكرة في الأذهان أن العرب القدماء لم يؤلفوا في تاريخ آدابهم كتابا يجوز أن يقال عنه إنه كتاب في تاريخ آداب العربية بمعناه المعاصر الذي اصطلح عليه الباحثون من أرباب هذا العلم. وصحيح أن العرب لم يعالجوا تاريخ آدابهم بشكل منهجي وموضوعي إلا في العصر الحديث، وذلك بعد أن اطلعوا على مؤلفات المستشرقين نتيجة للاحتكاك الثقافي الذي وقع بين الحضارتين العربية والغربية إثر حملة نابليون.

على أن جرجي زيدان أكّد في كتابه أن العرب كانوا أسبق الأمم إلى التأليف في هذا الموضوع[101]، واستدل على قوله بالإشارة إلى أن علماء العرب الذين ألفوا الكتب في تراجم أهل العلم والفضل كانوا يذكرون أسماء الكتب والرسائل التي خلفها أولائك العظماء مع بيان موضوعاتها ومواصفاتها أحيانا. ثم قدم على سبيل المثال كتاب الفهرست لابن النديم (ت 384هـ) باعتباره ذخيرة أدب وعلم تحيط بآداب اللغة العربية من أول عهدها إلى العصر الذي ألف فيه.[102] ولكننا نرى أنه لا يصح لنا أن نقول بأن ابن النديم كان يؤرخ للآداب العربية في كتابه الفهرست بالمفهوم الحديث لهذا العلم، لأنه لم يتطرق إلى وصف الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي واكبت ظهور الأعلام الذين ترجم لهم وذكر مصنفاتهم، ولم يرصد الاتجاهات والتيارات الجديدة التي فرضت نفسها على مسيرة الأدب، ولذلك لا يعدو كتابه أن يكون اسما على مسماه، أعني أنه لا يتجاوز كونه فهرسا ببليوغرافيا للمصنفات العربية مع تراجم مصنفيها إلى عصر المؤلف. ولسنا بهذا نبغي الحط من قيمة هذا الكتاب ولا تقليل قيمته العلمية والأدبية. كلا! إن هذا الكتاب مصدر مهم جدا لا يُستغنى عنه في معرفة الرصيد الحضاري والإنتاج الفكري للعرب والمسلمين، وهو

---

[100]. زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، ج1/ ص 8.

[101]. المرجع نفسه، ص 7.

[102]. المرجع نفسه.

من أمهات الكتب التراثية لما يتميز به من غزارة المادة التاريخية والعلمية ولما يتصف به من حسن التبويب والترتيب.

وقد ذكر جرجي زيدان أسماء كتب أخرى يمكن أن يقال على أساسها إن العرب سبقوا إلى التأليف في هذا الموضوع ، ولكنه عاد فيما بعد فاعترف أن مثل هذه الكتب لا يصح أن تعتبر تواريخا لآداب العربية بالمنعى المراد بالتاريخ اليوم، وإن كانت تعد من المآخذ الأساسية التي لا يُستغنى عنها لدرس آداب اللغة.[103] ولذلك نجده في آخر المطاف يقر أيضا بأنه لم يتصدّ للتأليف في موضوع تاريخ الآداب العربية على النمط الحديث أحد قبل المستشرقين من الإفرنج، فهم أول من كتب فيه حسب نظره. وعلى هذا الأساس، ادّعى زيدان أنه أول من صنف في هذا الموضوع وسمّى هذا العلم بهذا الاسم من بين العرب حيث عنون كتابه بعنوان تاريخ آداب اللغة العربية، وضمنه فصولا كان قد نشرها في مجلة الهلال.[104] وإنا لنحسبه صادقا في هذه الدعوى إذ لم تقع أنظارنا على كتاب عربيّ يحمل مثل هذا الاسم أسبق في الظهور من كتاب جرجي زيدان. وإذا صح هذا القول، فكتاب زيدان أول دراسة علمية موضوعية منهجية من نوعها لتاريخ الآداب العربية، وإليه يرجع الفضل في فتح هذا الباب على مصراعية في العالم العربي. ومهما يكن من شيء، فكتاب زيدان كتاب قيم يتميز بالشمولية والتوسع والتدقيق وحسن الترتيب.

وبعد صدور هذا الكتاب وانشاره في الأوساط الأدبية والدوائر الأكاديمية، أقبل الباحثون والنقاد على دراسة هذا العلم، وواصلوا التأليف والتحقيق فيه، فاشتهر من بينهم في القرن العشرين أعلام الأدب والنقد من أمثال الأستاذ أحمد حسن الزيات، ومصطفى صادق الرافعي، والدكتور طه حسين، وعمر فروخ، وحنا الفاخوري، والدكتور شوقي ضيف، وغيرهم ممن زوّد المكتبة العربية بأبحاث ودراسات علمية قيمة في هذا الموضوع مما أدى إلى ازدهاره وتشعبه في الآونة الأخيرة.

تعريف علم تاريخ الأدب العربي وأبعاده

لا شك أن لكل كاتب ومؤلف رأيه الشخصي وأسلوبه الخاص في تعريف هذا العلم وبيان أبعاده ومراميه، ولكل فضل، ولكننا نستنسب تعريف الأستاذ جرجي زيدان، فقد عرّفه على النحو التالي، قال : "آداب اللغة علومها..والمراد بتاريخ آداب اللغة تاريخ علومها أو تاريخ ثمار عقول أبنائها ونتائج قرائحهم، فهو تاريخ الأمة من الوجهة الأدبية والعلمية."[105] وإنما نستحسن هذا التعريف الوجيز من بين التعريفات العديدة

[103]. المرجع السابق، ص 8.

[104]. المرجع السابق نفسه.

[105]. المرجع السابق، ص 13.

التي قدمها المؤلفون لهذا العلم لأنه أبينها لفظا وأوضحها دلالة وأبلغها تعبيرا في رأينا. ويقول جرجي زيدان في موضع آخر: "نعني بتاريخ أداب اللغة العربية تاريخ ما تحويه من العلوم والآداب، وما تقلبت عليه في العصور المختلفة، أو هو تاريخ ثمار عقول أبنائها ونتائج قرائحهم."[106] وما نظن أنه أغفل أي جانب ذي بال في تعريفه الجامع.

وهناك تعريفات أخرى لا تقل جودة وشمولا، فمن ذلك تعريف الدكتور عمر فروخ الذي يقول : "أما تاريخ الأدب العربي فهو فن من فنون المعرفة يتعلق بتعاقب أعصر الأدب وبتطور الخصائص الأدبية مع الإلمام بسير الأدباء وبإحصاء إنتاجهم وبالتمييز بين خصائصهم."[107] ولو فوض إلينا أن نقدم تعريفا لهذا العلم لقلنا إن تاريخ الأدب العربي هو فرع من فروع العلوم والمعارف الإنسانية والثقافية يحاول أصحابها أن يؤرخوا للعصور الأدبية المختلفة التي مرّ بها الأدب العربي من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث مع توضيح السمات العامة لكل عصر وضم نصوص أدبية منه لتكون بمثابة مرآة تنعكس عليها نفسيات الأدباء واتجاهاتهم الفكرية مقرونا بشيء من التمحيص والتحليل لتلك النصوص وبيان مميزاتها وخصائصها اللفظية والمعنوية سواء كانت إيجابية أو سلبية (أي بيان ما لها وما عليها).

الغايات التي يرمي إليها مؤرخوا الآداب العربية والإسلامية ومناهجهم في الوصول إليها

قد حاول جرجي زيدان أن يبيّن أهمّ الأغراض والأهداف وراء دراسة هذا العلم في مقدمة كتابه، فمنها ما هو مقبول ومنها ما هو مردود. وأول هذه الأغراض عنده "بيان منزلة العرب بين سائر الأمم الراقية من حيث الرقي الاجتماعي والعقلي"[108]، وهذه الفكرة وإن كانت في ظاهرها خالية من الإشكال إلا أننا نستشف في باطنها ما يقلق البال فلا يطمئن القلب إليه. والسبب في ذلك أننا نشم في هذا الهدف رائحة منكرة، وهي رائحة عقدة النقص أو الدّونية التي غرستها أيدى الاستعمار في أذهان الشرقيين بمعاونة المستشرقين الذين كانوا من أعظم حلفاء الاستعمار لما ادلهم ليله وأقبلت دولته.

ومن المعروف أن المستشرقين كانوا يعتقدون أن الغربيين هم أفضل من الشرقيين، وكانوا ينظرون إلى الشرق بعين الازدراء والاحتقار، فحاولوا أن يقلّلوا من شأنه ويحطّوا من قدره وينقصوا من فضله كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا. وتأثّر الشرقيون بهذه المحاولات التضليليّة لأنهم أضحوا يعبّون من آبار المستشرقين ويشربون من مياهها العكرة، فمنهم من استسلم أمام هجماتهم الفكرية واعتنق الانهزامية في الفكر

[106]. المرجع السابق، ص 8.

[107]. فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، ج1/ ص 43.

[108]. زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، ج1/ ص 8.

والسلوك، ومنهم من اشتطّ إلى الضفة الأخرى فأخذ يتبجح ويتبختر ويغني بمفاخر آبائه وأجداده وأسلافه ورام دفاع ما لا يحتاج إلى دفاع متأثرا بمرض آخر، ألا وهو عقدة الاستعلاء والتفوّق، ولم يسلم من هذا الوباء الفكري إلا قليل من ذوي البصائر النافذة والمدارك النيرة والأذهان الثاقبة الذكية.

ولا نستثني جرجي زيدان من جملة من وقعوا فريسة لهذا الغزو الفكري فإنه أكثر من قراءة مؤلفات المستشرقين، فلا عجب أن أثر ذلك في منهجه وطريقة تفكيره وأسلوبه، ودفع قلمه إلى الوقوع في أخطاء بعضها منهجية وأخرى تاريخية. ولذلك نجد أنه يحاول في كتابه أن يدافع عن العرب وتاريخهم وثقافتهم حتى في الجاهلية الأولى وحمله ذلك في بعض الأحيان إلى أن يدعي للمجتمع العربي الجاهلي ما لم يكن له وأن يصف أفراده بما لم يكونوا متصفين به. وقد لخص الأستاذ شوقي أبو خليل في خاتمة دراسته المفصلة أهم المآخذ على جرجي زيدان، وقد أبرز فيها كثيرا من الأخطاء والأغلاط التي وقع فيها جرجي زيدان في كتاباته التاريخية[109]، فلا نطيل بالخوض فيها.

وتأثّر زيدان بقراءة آثار المستشرقين وبحوثهم هو الذيوَلَّدَ فيه رغبة لبيان "منزلة العرب بين الأمم الراقية" واعتبار هذه النكتة غرضا مهما من بين الأغراض المنشودة لدراسة تاريخ الآداب العربية أو للتأليف فيه. ونحن لا نستصوب هذا المنهج بل نرفضه لما يتوفر فيه من عناصر العصبية القومية التي لا تتوافق مع المنهج الإسلامي القويم للتعليم والتربية والتثقيف، فإن الإسلام إنما جاء ليلغي القبلية وليقضي على العصبية القومية، فعلّمنا النبي (ص) أن الناس خلقوا من أب واحد وأم واحدة – فلا فضل لعربيهم على عجميهم، ولا لأبيضهم على أسودهم إلا بالتقوى. وقد جاء في التنزيل العزيز قول الله تعالى : ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ[110])).

فبيّن الرب سبحانه أنه وزع الناس وقسمهم في هذه التقسيمات الاجتماعية المعروفة من قبيلة وشعب ليتعارفوا لا ليتفاخروا فيما بينهم. ولذلك نعتقد أنه لا ينبغي أن يكون الغرض من الدراسات التاريخية أو الأدبية إبراز منزلة قوم معين على حساب الأقوام الأخرى أو عقد مقارنة بين أمة وأخرى لإظهار فضل الأولى على الأخرى في أي مجال. ثم إننا لنتساءل : أي نفع يعود علينا إذا أثبتنا من خلال الدراسات العلمية المزخرفة والبحوث الأكاديمية المزركشة أن العرب أرقى أمم العالم في مجال الثقافة والأدب؟

ونستخلص من هذا أن من أراد أن يدرس آداب قوم أو أمة فليكن همه وغايته من دراسته كسب

---

[109]. أبو خليل، شوقي، جرجي زيدان في الميزان، ص 307-315.

[110]. القرآن الكريم : سورة الحجرات، الآية 13.

المعارف من سيرة تلك الأمة والاستفادة من تجاربها وحكمها – لا أن يتخذ هذه الدراسات وسيلة لإعلاء منزلة قومه وبيان فضله على حساب غيره. فهذه ملاحظتنا على الغرض الأول الذي ذكره جرجي زيدان، وهي تمثل النظرة التي نتبناها ونعتقد صوابها.

وأما الغرض الثاني الذي أشار إليه جرجي زيدان فهو معرفة ما تقلبت عليه عقول العرب وما أنتجته قرائحهم عبر العصور وما كان من تأثير الانقلابات السياسية والتطورات الاجتماعية والثقافية على آدابهم وما طرأت عليها من تغيرات باختلاف الزمان والمكان واختلاف الدول والعصور[111]، وهو غرض مقبول عندنا – بل نعتبره من أهم أغراض هذا العلم على الإطلاق. وكذلك ذكر زيدان أن من وظائف المؤرخ للأدب أن يقدم تاريخا لكل علم من علوم العرب على اختلاف أدواره من تكوينه ونشوئه إلى نموه ونضجه وتشعبه حسب العصور والأدوار[112]، وهذا غرض مهم ومفيد في نظرنا أيضا.

وأضاف زيدان إلى جانب هذه الأغراض غرضين آخرين هما في غاية الأهمية بالنسبة لدراسة هذا الفن، والأول هو تراجم رجال العلم والأدب وإحصاء آثارهم على نحو الإيجاز والإجمال مع الإشارة إلى المصادر التي يمكن الرجوع إليها لمن يريد التوسع في تلك التراجم[113]؛ وثاني هذين الغرضين هو وصف الكتب التي ظهرت في اللغة العربية حسب موضوعاتها، وبيان كيفية تسلسل بعضها من بعض، وبيان مميزاتها من حيث حاجة القراء إليها ووجه الاستفادة منها.[114]

ونحن نرى أنه لا يكفي لمن يريد أن يؤرخ للأدب أن يسرد أسماء الأدباء ويذكر مواليدهم ووفياتهم وبعض مؤلفاتهم ويضيف إلى ذلك نتفا يسيرة من أخبارهم وأحوال حياتهم، بل عليه أن يسلط الأضواء على الأوضاع العامة والظروف الخاصة التي أحاطت بهم وأثرت في إنتاجهم الأدبي. وإذا قام المؤرخ باستعراض نصوص أدبية من عصر معين فعليه أن يبيّن مدى تأثير الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في إنتاجها، وذلك لأن الغاية الأساسية لدراسة تاريخ الأدب العربي – في رأينا – هي فهم الأدب وتطوره فهما صحيحا سليما سديدا مبنيا على إدراك جيد للمراحل التاريخية التي مرّ بها الأدب ومدى تأثير الأحداث التاريخية في جوهره وطبيعته. وهذا من الضروري لأنه لا يستطيع أحد أن يفهم نصا أدبيا معينا فهما صحيحا ودقيقا إلا إذا أتيح له أن يدرس البيئة التي ظهر فيها ذلك النص دراسة وافية. وهذه قاعدة عامة تنطبق على سائر أنواع النصوص الأدبية – بل وحتى على النصوص الشرعية كالقرآن الكريم والحديث

---

[111]. زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، ج1/ ص 8.

[112]. المرجع السابق نفسه.

[113]. المرجع السابق نفسه.

[114]. المرجع السابق نفسه.

النبوي الشريف، ولذلك نجد أن أهل العلم قد اشترطوا في المفسّر مثلا أن يكون له إلمام بأسباب النزول[115] حتى يفهم سياق الخطاب الرباني في القرآن؛ وكذلك الحال مع مؤرخ الأدب فإنه ينبغي له أن يكون عالما بخلفيات الأدباء ومذاهبهم، فإن الأديب يتأثر بما يراه حوله وتظهر آثار ذلك جلية فيما يؤلفه من نثر أو ينظمه من شعر، ولا يمكن فهم ما أنتجته قريحته فهما صحيحا إلا في ضوء دراسة علمية معمّقة لمحيطه الاجتماعي والثقافي.

وعلى هذا الأساس، يسعى المؤرخون للأدب جاهدين من أجل إماطة اللثام عن الأوضاع السياسية والظروف الاقتصادية والظواهر الاجتماعية التي لعبت دورا في توجيه مسيرة الأدب عبر العصور التاريخية المختلفة، وإنما ينحون هذا المنحى لعلمهم وإدراكهم أن الأدب كائن حي يؤثر في مجرى الحوادث والوقائع التاريخية كما يتأثر بها إلى حد بعيد، وهذا شأنه في جميع الحضارات والثقافات العالمية.

استكناه مفهوم الأدب

لو وُكّل إلينا أمر تعريف الأدب حسب رأينا لأوجزنا المقال ولقلنا إن الأدب هو حسن العبارة عن الحقائق.

وقد تبين مما عرضناه سابقا أن الأدب كائن حي يؤثر في الأحداث ويتأثر بها، ولذلك يهتم الباحثون في الأدب العربي بتاريخ نشأته وتطوره وأهم أعلامه من الشعراء والخطباء والكتّاب عبر العصور المتعاقبة، فيدرسون حياة الأدباء ويمعنون النظر في الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي وجهت مجرى الأدب، ويحاولون أن يقدروا تأثير الأدب في المجتمع الذي ظهر فيه وتأثيره في الأمم الأخرى أيضا، فإذا كان الأدب عبارة عما تختلج في نفس الإنسان من خواطر ومشاعر، وكانت حقائق النفس الإنسانية في كل الناس مشتركة، فلا عجب أن يكون بين آداب الأمم شيء من التشابه والتوارد إذ أن القوى الداخلية للنفوس الإنسانية كلها من جنس واحد.

اتجاهات مؤرخي الآداب ونقدتها في قضية الانتحال في الآداب العربية والإسلامية

إن الأدب العربي ولا سيما القسم المنظوم منه قد دخل فيه انتحال كثير، والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا يسجلون أشعارهم في الجاهلية ولم يكونوا يجمعونها في الدواوين، وإنما كانوا يعتمدون في حفظها على مجرد الذاكرة، وكانوا يتناقلونها فيما بينهم، فسارت بها الركبان وانتقلت من راو إلى راو مما أتاح لبعض الرواة المدلسين أن يضيفوا إليها أبياتا من تلقاء أنفسهم.

---

[115]. وأسباب النزول هو علم ما ورد من الأحاديث والأخبار في شأن العلل التي من أجلها نزلت بعض آيات القرآن، وقد صنف في هذا العلم مصنفات مستقلة، يراجع السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج1/ ص 64-69.

ولسوء الحظ، لم تبدأ عملية التدوين إلا في العصر الأموي الأخير، أي بعد مائة سنة على الأقل من زمن الإنتاج مما فتح الباب على مصراعيه للوضع والدس والتزوير، واغتنم الرواة هذه الفرصة لإضافة أبيات مختلقة إلى أشعار الجاهليين.

وقد دفع الرواة إلى الوضع والتدليس عاملان أساسيان حسب تقييم الأستاذ شوقي ضيف لما جاء في كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي : عامل القبائل التي كانت تبحث عن وسائل لتكثير فضائلها ومناقبها، وعامل الطموح الذاتي عند الرواة إذ كانوا يبتغون الجاه والشهرة، فعمدوا إلى اختلاق الشعر وإضافته إلى الأشعار التي كانوا يروونها لتكثر رواياتهم وليخلدوا بذلك أسماءهم[116]، ومن أشهر من اتهموا بالإنتحال حماد الراوية وخلف الأحمر. ولذلك حاول الأدباء والنقاد أن ينفوا عن الشعر الجاهلي تلفيقات الرواة الوضاعين، وأشار محمد بن سلام الجمحي إلى هذه المسألة في كتابه طبقات فحول الشعراء بقوله : "وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه، ولا حجة في عربية، ولا أدب يستفاد، ولا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب، ولا نسيب مستطرف. وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء. وليس لأحد – إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه – أن يقبل من صحيفة، ولا يروي عن صحفيّ."[117]

وقد زعم بعض النقاد أن الشعر الجاهلي كله أو أكثره منحول وموضوع، وقد قدم الدكتور عبد الرحمن بدوي آراء من ذهب إلى ذلك من المستشرقين في كتاب سماه دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي[118].ثم جاء من بعد هؤلاء المستشرقين تلميذهم الفكري وعميد الأدب العربي في العصر الحديث الدكتور طه حسين، وقد ألف هذا الأخير كتابا حول هذا الموضوع وسماه الشعر الجاهلي وقد أثار هذا الكتاب جدلا عنيفا بين أنصار فكرة صحة الشعر الجاهلي ومعارضيها، ودار النقاش حول هذا الموضوع لسنوات، وألف فيه مصنفات مستقلة[119] يمكن الرجوع إليها للتعرف على المزيد من التفاصيل المتعلقة بهذا النزاع.

ونحن نرى أنه لا مجال للشك في أن الانتحال قد وقع في رواية الشعر الجاهلي لكن ذلك لا يجرنا إلى إنكار ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي بحذافيره، لأن الدس والتدليس قد وقعا في مجالات أخرى من تراثنا أيضا كالسيرة النبوية والحديث النبوي الشريف وغير ذلك من المأثورات التي تطرقت

---

[116]. ضيف، الدكتور شوقي، تاريخ الأدب العربي – العصر الجاهلي، ص 164.

[117]. الجمحي، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص 4.

[118]. يراجع بدوي، الدكتور عبد الرحمن، دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ص 41-142.

[119]. ينظر على سبيل المثال : الأسد، الدكتور ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي وقيمته التاريخية، دار الجيل، بيروت، الطبعة السابعة، 1988م.

إليها الإسرائيليات والخرافات، ولكن ذلك لم يدفع العلماء والمتخصصين في تلك الفنون إلى إنكار أو إبطال ذلك التراث بالكلية، وإنما دفعهم علمهم بوقوع الانتحال في الحديث إلى التعمق في دراسة نصوصه وتحليل أسانيده وتمحيص متونه، وهو المنهج القويم الذي ينبغي للنقاد أن يلتزموا به في مسألة صحة الشعر الجاهلي، ويجب عليهم أن يبذلوا قصارى جهودهم ليستخلصوا منه الصحيح، وينفوا عنه كل دخيل.

المناهج المعتمدة في توراخ الآداب العربية والإسلامية:

إن من يمعن النظر في مؤلفات المؤرخين للآداب العربية والإسلامية يدرك أنهم يتجهون اتجاهات مختلفة في مناهجهم التصنيفية وأساليبهم التقسيمية، فمنهم من يتناول العصور التاريخية السياسية عصرا عصرا، ويؤرخ للنشاط الأدبي خلال كل عصر، ويعرّف بأبرز الشخصيات الأدبية التي ظهرت فيه ويشير إلى أهم التيارات الفكرية في ذلك العصر، ويقف عند هذا الحد. ومنهم من يتناول الأنواع الأدبية كالشعر والخطبة والمسرحية والمقامة والقصة والرسالة مثلا فيدرس تطورها من عصر إلى عصر. وهناك آخرون يؤثرون التركيز على الأدباء أو الشعراء في عصر معين أو من طبقة معينة، فيترجم لهم ويذكر أشعارهم، وهكذا في بقية العصور.

وقد لاحظنا أن هناك اختلافا بين المؤرخين للأدب فيما يتعلق بمسألة الارتباط بين التاريخ السياسي والتاريخ الأدبي، فقد أدلى الباحثون بآراء متباينة فيها، وأدى ذلك إلى وجود عدة خطوط لعصور الأدب العربي. فهذا أمر اختلف فيه علماء الأدب، وعلّق كل منهم حسب موقفه من قضية الصلة بين العصور الأدبية والأحداث التاريخية، أعني بين الأدب والتاريخ والسياسة، فالأستاذ جرجي زيدان – مثلا – قسم الأدب حسب العصور السياسية، فكل عصر من العصور الأدبية ليس له إلا أن يدخل تحت مظلة عصر سياسي ما يواكبه من التاريخ العام. وأما الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، فإنه لا يرتضي مثل هذا الربط بين العصور الأدبية والعصور السياسية. والدكتور طه حسين في كتابه الأدب الجاهلي يتابع الرافعي أيضا في معارضة النظر إلى الأدب باعتبار العصور السياسية التي برز فيها، والتي على أساسها يتفرع إلى أدب جاهلي وإسلامي وعباسي.

وكذلك الأمر مع الأستاذ أنور الجندي، فإنه يرى أن تقسيم الأدب إلى عصور : أموي وعباسي وغيرهما "تقسيم أجنبي ظالم"، يستهدف "تدمير مقومات الأدب العربي ووصمه بالضعف والتخلف."[120]

وأما المستشرقون فنجد أن بعضهم كانوا يرفضون ربط التاريخ الأدبي بالتاريخ السياسي، فالعصر

[120]. الجندي، أنور، خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث، ص 57.

الأدبي للجاهلية عند بلاشير – مثلا – يمتد حتى منتصف القرن الأول الهجري، وهي فترة تشمل الجاهليين والمخضرمين جميعا، وذلك ما نجده عند بروكلمان أيضا. ونحن نميل إلى عدم فصل العصور الأدبية عن العصور السياسية، لأن العصر الأدبي إنما هو لسان حال العصر السياسي في كل فترة زمنية. وقد ذهب أكثر المؤرخين للأدب العربي هذا المذهب، فقسموه وفق ما جرى على الأمة العربية والمسلمة من تقلبات سياسية واجتماعية، وأغلب الظن أنهم اتبعوا هذا المنهج لما رأوا بين تاريخ الأدب وتاريخ السياسية من تأثير متبادل في مساراتهما. على أن هذا لا يعني أن العصور الأدبية تتفق مع العصور التاريخية اتفاقا تاما، بل الظواهر الأدبية تتداخل في العصور التاريخية فيحاول العصر التالي أن يستفيد من سابقه ويعمل على تحسين جيده وتطويره.

والمنهج المقبول عند أكثر من درسنا عليهم من الأساتذة تقسيم الأعصر الأدبية إلى خمسة أعصر أساسية على النحو التالي:

(1) عصر ما قبل الإسلام – ويسمى بالعصر الجاهلي – ولعل الأنسب أن نسميه بهذا الاسم لأن القرآن الكريم أطلقه عليه. وكانت بداية هذا العصر بقرن ونصف تقريبا قبل ظهور الإسلام، وكانت نهايته عند ظهور الإسلام وتشكل الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(2) العصر الإسلامي – وكانت بداية هذا العصر من بزوغ فجر الإسلام وابتداء الدعوة الإسلامية، واستمر هذا العصر إلى أن أطاح العباسيون بدولة الأمويين في سنة 132هـ/ 750م. وقد لاحظنا أن بعض المؤرخين يقسمون هذا العصر إلى عهدين : عهد صدر الإسلام وعهد الدولة الأموية. ونحن نرى أنه من الضروري أن يفصل بين عهد صدر الإسلام وبين العهد الذي تلاه، وذلك لأن العصر الذي جاء بعد نهاية الخلافة الراشدة كان أشبه بالجاهلية الأولى منه بالعصر الإسلامي حيث تم إحياء كثير من التقاليد الجاهلية وتوقدت نيران العصبية القبلية التي كانت متأججة في العصر الجاهلي والتي تم إطفاؤها في عصر صدر الإسلام. فينبغي فصل العصر الأموي عن عصر صدر الإسلام لما بينهما من تباين واسع وتشاكس ملحوظ. وقد وقع بعض المؤرخين في التباس من هذا الأمر فما اهتدوا إلى هذه النكتة، وما فرقوا بين العصرين الإسلامي والأموي، بل راحوا في بلاهة منقطعة النظير يعتبرون العصر الأمويّ امتدادا طبيعيا للعصر الإسلامي، وإن كان بين العصرين بُعْدُ ما بين المشرقين، فشتان ما بين عصر قام فيه نظام سياسي واجتماعي عادل – على أساس الوحي السماوي وجرى فيه الأمر على قواعد الكتاب والسنة، وروعي فيه مبدأ الشورى – وعصر ظهر فيه ملك عضوض وإمبراطورية جبارة مستبدة وغاشمة فرضت طاعتها

على رقاب المسلمين عنوة، فَسَادَ الظلمُ والجور وراج الطغيان والعدوان حتى استكملت الدولة أجلها ومضت إلى مزبلة التاريخ لتتبوأ فيها مقعدها بعد أن سطرت صفحات دامية وسلكت طريقا مفروشا بجماجم النبلاء وأشلاء الأبرياء.

(3) العصر العباسي – كانت بداية هذا العصر من سنة 132هـ واستمر لعدة قورن حتى سقوط بغداد حيث تم القضاء على الدولة العباسية على أيدى المغول وذلك في سنة 656هـ/ 1258م. ولاحظنا أن مناهج المؤرخين في تغطية هذا العصر قد اختلفت لاعتبارات متعددة منها طول مدة حكم العباسيين، فإن حكمهم دام لقرابة خمسة قرون، ومنها لخصوبة هذا العصر من الناحيتين الأدبية والثقافية إذ هو العصر الذهبي الذي نشأت فيه أكثر العلوم ودونت أفيد المعارف، ونقلت الكتب من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية مما كان له أبعد الأثر في إثراء الأدب العربي وتطوره. ومن هنا اختلفت مناهج المؤرخين في تقسيم هذا العصر وعدمه، فمنهم من جعله عصرا واحدا، ومنهم من جعله عصرين:

- العصر العباسي الأول : ويمتد نحو مائة عام.
- العصر العباسي الثاني : ويشمل بقية العصر.

وجعله آخرون ثلاثة عصور:

- العصر العباسي الأول : ويمتد نحو مائة عام.
- العصر العباسي الثاني : ويمتد حتى عام 334هـ/ 945م، أعني إلى استقرار الدولة البويهية في بغداد.
- العصر العباسي الثالث – ويمتد إلى استيلاء المغول على بغداد.

(4) العصر الوسيط – أو ما يسمى بعصر الانحطاط : ويبدأ سنة 656هـ/ 1258م أي إثر سقوط الدولة العباسية، وينتهي عند النهضة الحديثة، ويقسمه معظم المؤرخين إلى عهدين :

- عهد الحروب الصليبية والعهد المملوكي : ويبدأ بسقوط بغداد على أيدي المغول في سنة 656هـ ويمتد إلى ثلاثة قرون.
- العهد العثماني : ويبدأ ببداية القرن العاشر الهجري ويمتد لمدة قرابة أربعة قرون إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري.

وقد سلقت الإشارة إلى أن المؤرخين دأبوا على تسمية العصر الوسيط بعصر الانحطاط واعتبروه فترة مظلمة في تاريخ الأدب العربي لأنهم لاحظوا أن الأدب في هذه المرحلة التاريخية كسد وجمد فتوقف نموه، وظل الإنتاج الأدبي فيه وسطا يحتفظ في نماذجه ببعض ما كان يتميز به في العصور السابقة من نضج فني إلا أنه اعتراه ضعف شديد على مستوى المباني والمعاني بسبب ولوع الأدباء بالمحسنات اللفظية وإكثارهم منها. على أننا نرى أن الأدب في هذا العصر لم يكن مترديا إلى الدرجة التي يزعم بعض النقاد ومؤرخي الآداب، بل وجدنا من الباحثين من أثبت من خلال البحث في تاريخ هذا العصر ونتاجه أنه لم يكن عصر انحطاط أو انحدار، بل كان عصراً ازدهرت فيه الثقافة

الإسلامية وتطور الأدب الأدبي بفضل ما ظهر فيه من العلماء الأجلاء والأدباء البارعين والكتاب النابغين ممن ألفوا الكتب والموسوعات وأثروا الرصيد الحضاري للأدب العربي من خلال جهودهم المضنية ومساعيهم الحميدة.[121] وقد رأى الأستاذ أنور الجندي في تسمية عصري المماليك والعثمانيين باسم "عصر الانحطاط"نوعا من الإجحاف والظلم وذلك لأن هذا العصر كان حاملا "عصارة ثمرات تطوّر الأدب العربي والفكر الإسلامي" مما يؤهله لأن يسمى "عصر الموسوعات". ولذلك فإن الأستاذ أنور الجندي لا يمتري في أن مثل هذه الأسماء من اختراع المستشرقين وأذنابهم من سماسرة التغريب، وأنهم يهدفون من خلال استخدام هذه المصطلحات إلى "تدمير مقومات الأدب العربي ووصمه بالضعف والتخلف."[122]

وعلى هذا الأساس، نرى أنه لا داعي لإطلاق مصطلح "العصور المظلمة" أو "عصر الانحطاط" على هذه الفترة ما دام أن الأدب عموما لم ينحدر إلى درجة الابتذال؛ وليس من الصعب أن نعيّن السبب الذي يكمن وراء هذه التسمية، فالمجد الذي تألق منذ بزوغ فجر الإسلام قد انطفأ نوره مع اجتياح المغول للعالم الإسلامي، وهجوم الصليبيين الحاقدين – الذين أرادوا الانتقام من المسلمين، وسقوط البلاد العربية في أيدى العثمانيين الذين لم يعيروا اهتماما بالناحية العلمية بل صادروا العلم والعلماء في بعض الأحيان – فهذه العوامل وغيرها ألحقت بالمسليمن الظلم والقتل والتمزيق والتجهيل والتخلف، فعمّ الظلام في أرجاء العالم الإسلامي، وذهبت أتعاب القرون أدراج الرياح كما يقال، فالانحطاط – في نظرنا – كان سياسيا في المرتبة الأولى، جرّ بعد ذلك إلى الانحطاط الاقتصادي والاجتماعي والأدبي والثقافي. ولكن هذا لا يعني خلو هذه الفترة من مظاهر التطور في ميادين العلوم العسكرية والتطبيقية، وكذلك علوم اللغة العربية وآدابها، فقد ظلت اللغة العربية اللغة الرسمية في البلاد والمستعمرات، ونبغ عدد من المؤلفين في شتى البلاد، وانتقلت مراكز العلم والأدب والثقافة من بغداد وقرطبة إلى مدن أخرى كدمشق والقاهرة وسمرقند وبخارى وإسطنبول وغيرها من الحواضر الإسلامية الزاهرة.

(5) العصر الحديث : ويبدأ بحملة القائد الفرنسي الشهير نابليون بونبارت على مصر سنة 1798م ويمتد إلى يوم الناس هذا.

خاتمة البحث :

ومغزى القول أن تاريخ الآداب العربية علم من العلوم المتعلقة باللغة العربية وآدابها، ولأهل الاختصاص فيه اتجاهات متنوعة ومناهج متعددة، وبالجملة فهذه المادة الدراسية عبارة عن علم نافع وفن ممتع ومفيد،

---

[121]. يراجع : مخلص الرحمن، أبو البرهان محمد، صلاح الدين الصفدي أديبا ومؤرخا : دراسة نقدية، ص 215.

[122]. الجندي، أنور، خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث، ص 57.

وهو لا شك حقل معرفي صعب المسلك دقيق المأخذ عميق القعر لا يعرفه على وجهه ولا يحيط علما بكنهه إلا من وفّق للتبحّر في كل من علمي التاريخ والأدب إضافة إلى علوم اللغة العربية المختلفة من نحوها وصرفها وبلاغتها وبديعها وعروضها. وإن من أغفل هذا العلم فستفوته معرفة ما اشتملت عليه اللغة العربية من العلوم والآداب وما طرأت عليه من التطورات عبر العصور المتعاقبة، ومن فاته علم هذه الأشياء فقد فاتته معارف جمة، وذلك لعمري هو خسران مبين.

المراجع العربية

القرآن الكريم

أبو خليل، شوقي، جرجي زيدان في الميزان، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، 1981م.

الأسد، الدكتور ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي وقيمته التاريخية، دار الجيل، بيروت، الطبعة السابعة، 1988م.

بدوي، الدكتور عبد الرحمن، دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، 1979م.

الجمحي، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1974م.

الجندي، أنور، خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية، 1985م.

زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، راجعها وعلق عليها الدكتور شوقي ضيف، دار الهلال، د.ت.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.

ضيف، الدكتور شوقي، تاريخ الأدب العربي – العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية والعشرون، د.ت.

فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، 1981م.

مخلص الرحمن، أبو البرهان محمد، صلاح الدين الصفدي أديبا ومؤرخا : دراسة نقدية، رسالة قدمت إلى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة عليكره الإسلامية ليل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي تحث إشراف الدكتور عبد الباري، السنة الجامعية 1999م.

المراجع الإنجليزية

Gibb, H.A.R. *Mohammedanism: A Historical Survey.* New York: Oxford University Press, 1962.

Hitti, Philip K. *History of the Arabs from the Earliest Times to the Present.* London: Macmillan, 1970.

Smith, Wilfred Cantwell. *Modern Islam in India: A Social Analysis.* London: Victor Gollancz Ltd, 1946.

النزعات اللغوية والنحوية والصرفية إشارة خاصة إلى ابن جني

الدكتور آزاد أحمد واني الندوي[123]

المدخل:

بدأت الدراسات اللغوية عند العرب منذ طلوع الإسلام على خدمة القرآن الكريم، فاعتنى المسلمون منذ القرن الأول الهجري بضبط الكتابة العربية وتعيين الحروف الكتابية، حفاظا على كلام الله عزوجل عن أن يصيبه التحريف لما امتزجت العرب بالأمم الأخرى بالفتوحات الإسلامية وتفرق العرب بنواحي العالم وأكنافه، وبذلك الامتزاج يشيع اللحن على الألسنة كان ذلك سببا قويا وحافزا أساسيا لجمع اللغة وضبط قوانينها وأصولها، ووجدنا أن العرب اتخذوا القرار على اهتمامها بضبط القراءة "النحو" للامتزاج بسيل العجمة القادمة إليها من البلاد المفتوحة، كما ذكر ابن جني في كتابه "الخصائص" أن بعض الرواة رووا عن اللحن منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم "أنه سمع رجلا يلحن في كلامه فقال: أرشدو أخاكم فإنه قد ضل".[124]

و في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه طلب أعرابي لقراءة القرآن فقرأ سورة برآءة فلحن وأخطأ في الإعراب في قول الله تعالى " وآذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله "[125] حيث أعرب اللام بكسرها فقال الأعرابي أو قد برئ الله من رسوله ؟ إن يكن الله قد برئ من رسوله فأنا أبرئ منه، فلما وصل هذا الخبر إلى عمر دعا الأعرابي، وقال له: "ليس هكذا يا أعرابي فقال الأعرابي: كيف هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال: إن الله بريء من المشركين ورسوله بالرفع، فقال الأعرابي وأنا والله أبرئ ممن برئ الله ورسوله منهم فأمر عمر بعد ذلك ألا يقرء القرآن إلا عالم اللغة"[126] وروي أنه رسم لأبي الأسود من عمل النحو ما رسمه، وقيل إن هذه القصة كانت مع علي رضي الله عنه، وقيل إنها كانت مع أبي الأسود نفسه في زمن زياد، وأن زيادا هو الذي طلب من أبي الأسود أن يصنع شيئا يقيم عوج الألسنة اللاحقة، فأبى أبو الأسود فبعث زياد رجلا ليقعد له بطريقه وأمره أن يقرأ شيئا ويعتمد فيه اللحن فقرأ " إن الله بريء من المشركين ورسوله " بجر اللام فاستعظم أبو الأسود ذلك وقال: عز وجه الله إن الله لا يبرأ من رسوله ثم رجع من فوره إلى زياد، فقال يا هذا قد أحببتك إلى ما سألت،[127] وروي أيضا أن أحد ولاة عمر

---

[123] الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية بكلية بلوامه للبنين.

2- الخصائص ج2 : ص – 8

3- البقرة آية 3

4- د محمد شاطر أحمد محمد الموجز في نشأة النحو الطبعة الأولى الناشر مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ص – 8 – 9

[127] - المصدر السابق – ص – 9

رضي الله عنه كتب إليه كتابا لحن فيه، فكتب إليه عمر: "أن قنع كاتبك سوطا".[128]

بيد أن اللحن في صدر الإسلام كان لا يزال قليلا بل نادرا وكلما تقدم الزمن اتسع شيوعه على الألسنة، كما ذكر الدكتور شوقي ضيف في كتابه "المدارس النحوية" أن العرب يدركون اللحن "بعد تعرب الشعوب المغلوبة التي كانت تحتفظ ألسنتها بكثير من عاداتها اللغوية، وازداد اللحن فشوا وانتشارا على ألسنة أبنائهم الذين لم ينشأوا في البادية مثلهم ولا تغدو من ينابيعها الفصيحة، إنما نشأوا في الحاضرة واختلطوا بالأعاجم اختلاطا أدخل الضيم والوهن على ألسنتهم وفصاحتهم، وبجانب ذلك كانت هناك بواعث اجتماعية، وهي أن كثيرا من أبناء العرب ولدوا بأمهات أجنبيات أو أعجميات، فكانوا يتأثرون بهن في نطقهن لبعض الحروف وفي تعبيرهن ببعض الأساليب أو أعجمية، وكل ذلك جعل الحاجة تمس في وضوح إلى وضع رسوم يعرف بها الصواب من الخطأ في الكلام خشية دخول اللحن، وشيوعه في تلاوة آيات الذكر الحكيم".[129]

وفي هذا الوقت بدأت المحاولات وتوالت للكشف عن القواعد التي يسيرعليها الكلام العرب ولوضع هذه القواعد في قوالب تتخذ لتعليم ويبرز في هذه المحاولات اسم أبي الأسود الدؤلي ومن يليه من نحاة البصرة والكوفة إلى أن يأتي خليل بن أحمد الفراهيدي وهو أول من التفت إلى صلة الدرس الصوتي بالدراسة اللغوية الصرفية والنحوية، وقد رتب حروف الهجاء ترتيبا صوتيا على أساس لغوي، هو قريبها بحسب المخارج في الفم، فكان منطلقا إلى معرفة خصائص الحروف وصفاتها وقد وضع الخليل بذلك يده على مفتاح السر في وجود ظواهر لغوية لم تكن إلا على أساس الأصوات واتصال بعضها ببعض في كلمات كالإبدال والإدغام.

ولابد للوصول إلى ذلك من معرفة صفات الحروف فتحدث عنها ودرس مخارجها وصفتها كالجهر والهمس وغيرهما، وله شأن جليل في كثير من جوانب الدراسات اللغوية، وظهر في القرن الثاني الهجري رجل آخر هو أبو بشر عمرو بن عثمان بنقنبر الملقب بسيبويه، كان تلميذ الخليل وهما استطاعا أن يجمعا المتناثر من النحو البصري في كتابين ضخمين اتخذهما النحويون دستورا، فقامت عليها الدراسات النحوية والصرفية واللغوية في شتى البلاد أحقابا طويلة.[130]

وكان القرآن الكريم حادثًا تاريخيًا، له آثار من نواح متعددة كانت اللغة ناحية منها فمن ناحية اللغة يرى الباحث أن اللغة العربية انتشرت في البلاد المفتوحة في مصر والشام وشمالي إفريقيا والعراق وفارس والهند، وأن أهل هذه البلاد يتعلمون تكلم العربية تدريجيا حتى غلبت ماعداها، وبذلك صار المتكلون بها أضعافا

---

[128] - الخصائص ج2 : ص – 8

[129] - المدارس النحوية – ص – 12

[130] - مقدمة سر صناعة الإعراب – ص – 8 و انظر د مهدي المخزومي في النحو العربي ، مصطفى الحلبي 1966 م ص- 4 – 7

مضاعفة من كان يتكلم بها من عرب الجزيرة، وقد ذكر محمود السعران في "علم اللغة" أنه "كسب الغة بكلمات جديده للدلالة على مسميات لم يكن يعرفها العرب من قبل، وهذه الكلمات الجديدة دخلت في اللغة العربية وخضعت لإحكامها وقوانينها، فالعرب بعدالاسلام والفتوح أكثروا من استعمال الكلمات العربية للتعبير عما استجد في صيغتهم ممالا يوجد له في لغتهم ألفاظ للدلالة عليه".[131]

وقد كانت الأبحاث اللغوية أول الأمر تقتصرعلى جمع الألفاظ دون دراسة لها لأنهم العلماء الأكبر حينئذ هو ضبطها وتدوينها، فرأينا الرواة كالأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد يذهبون إلى البادية يجمعون الألفاظ، وقد انتهت تلك المرحلة بتدوين طائفة من الألفاظ في كتب خاصة في الإبل والخيل والوحوش والنبات والشجر، والأنواء وأظهر الكتب في ذلك كتب الأصمعي وأبي حنيفة الدينوري، ثم ظهر كتب تجمع ألفاظ اللغة الموضوعة للمعاني الختلفة كألفاظ ابن سكيت وألفاظ الكتابة للهمذاني، وقد بدأت مدرسة اللغويين تتناول هذه المفردات بالبحث علي نحو يجمع الجزئيات وما يتصل بها من قصص أدبية، وتاريخية لغوية كالذى نجده في كتب المبرد وكتب الأصمعي وكتب أبي على القالي، وهي كتب تشتمل على كثير من أخبار العرب ومباحث الأدب وقصص التاريخ والمفردات اللغوية.[132]

نرى في تلك الآونة أن سائر العلماء لهم موهبة بتمهر سائر العلوم وتمرسها لأن هولاء العلماء كانوا عالمي اللغة والنحو والصرف والأدب، وكل أقسام ما عرف بعدهم بمسميات مختلفة، غلب عليه أحد أقسام الفن حتى عرف به واشتهر به كل واحد منهم وهكذا عرف كل منهم بفنه سواء بعالم الرواية والنحو والصرف واللغة والشعر والنثر وغير ذلك، وقد ذكرنا سابقا أن الأبحاث اللغوية كانت مقتصرة أول الأمر على جمع الألفاظ دون دراسة لها، وكانت الدراسات اللغوية حتى نهاية القرن الثالث الهجري مقتصرا ومحتويا طبقا للسيوطى: "على أحد من طرق أربعة، هي الإملاء والافتاء والرواية، وكانت طريقة العلماء في ذلك الحين جمع معلومات عامة غيرمترابطة ولا منظمة، متجها إلى المفردات لا إلى التراكيب والجمل".[133]

ولكن القرن الرابع الهجري يعد أزهر عصور ابتكار وتحولات هامة في الحياة العلمية واللغوية، ونشطت الدراسات اللغوية نشاطا لا نظير له بالعاصمة بغداد قاعدة الدولة الإسلامية.

وكان هذا العصر عصرًا اعتزاليًا قد قوي في هذا القرن واعتنقه كثير من اللغويين والنحويين، ولاشك فيه أنه طريق عقلي حر، كما يصف الدكتور طلس: "إن هذه الظاهرة ترينا ارتباط النحو والنحاة بالحرية

---

[131] - د محمود السعران ، علم اللغة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت – ص

[132] . عبقري اللغويين ج1 : ص – 123 – 124

[133] - نفس المصدر ج1 ص 124 -

الفكرية التي يميل إليها المعتزلة في بحوثهم، واتسعت في القرن الرابع أفاق الحياة العلمية، وامتزجت الثقافات الإسلامية بغيرها من ثقافات الأمم القديمة كالهنود والفرس واليونان وغيرهم، فنشطت الدراسات اللغوية المبتكرة نشاطا كبيرا وتحولت دراسة اللغة بعد أن كانت مجرد جمع الألفاظ والروايات الأدبية والخطب إلى الإفادة من علوم العصر، وتخلص علم اللغة كما تخلص علم الكلام من طريقة الفقهاء ومناهجهم حتى من الناحية الشكلية، وأخذوا يسيرون على خطة الخليل بن أحمد".[134]

وقد حاول الباحثون والعلماء في ذلك العهد لإبراز فن جديد يختلف عما سبق من المسائل النحوية والصرفية وغير ذلك، وإخراج الدرر الغوالي التي كانت غامضة في كتب المتقدمين وفتح ما كان مقفلا، "وقد كانوا لا يبينون ما انقلبت فيه الألف عن الياء مما انقلبت الواو فيه عن الياء ولا يحددون الموضع الذي انقلاب الألف فيه عن الياء أكثر من انقلابها عن الواو مع عكس ذلك، ولايميزون مما يخرج على هيئة المقلوب ما هو منه مقلوب وما هو من ذلك لغتان، وذلك كجذب وحبذ ويئس وأيس ورأى وراء وكذلك لا ينبهون على ما يسمعونه غير مهموز مما أصله الهمزة على ما ينبغي أن يعتقد منه تخفيفا قياسيا وما يعتقد منه بدلا سماعيا، ولا يفرقون بين القلب والإبدال ولا بين ما هوجمع يكسر عليه الواحد وبين ما هو اسم للجمع"،[135] ولذلك نرى أن العلماء البارزين كأمثال ابن دريد والأزهرى والجوهرى يمسون الآفاق لجمع اللغة بطريقة منظمة.

ومماالاشك فيه أن ابن جني قد سبقه رجال شهد لهم علماء اللغات بالأصالة والسبق إلى تدوين اللغة والنحو والصرف في كثير من الدقة والبراعة كالخليل بن أحمد الأزدي وتلميذه سيبويه الفارسي صاحب الكتاب وهو دعامة النحوالعربى حقا، وقد ذكر محقق سرصناعة الإعراب، "والباحث فيما أثر عن الخليل وسيبوية لا يجد أصلا من الأصول اللغوية أو النحو قد تكلم فيه وأشبعه اللهم الإشارات خاطفة في جملة أو جمل يسيرة لا تشفي غليلا ولا تنقع ظمأ، حتى إذا جاء أبو الفتح انتزع تلك الإشارات العابرة من كلام الإمامين، ومن حذاحذوهما من نحاة البصرة، وبنى عليها فصولا شارحة وأبوابا مطولة يتألف منها مع ماشابهها تيارات متدفقة في أصول النحو واللغة كالتي نجدها في كتاب الخصائص".[136]

وكان لابن جني في أصول النحو باع طويل وجهد كبير وقد ألف بعض علماء اللغة كتبا في أصول النحو كأمثال أبي بكر بن السراج وأبي الحسن الأخفش ولكنهما لم يفوزا كفوز ابن جنى الذي يسد الثلمة في بناء اللغة فيأتى بما عجز الأوائل والأواخر وقصروا فيه ويكشف عن أسرارها فيما يبتكره ويسميه علم أصول

[134] - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج1 – ص 387

[135] - مقدمة المخصص – ص – 71

[136] - مقدمة سر صناعة الإعراب – ص – 3 – 9

النحو وينوه بهذا الابتكار في مقدمة كتابه الجليل "الخصائص" : هذا مع إعظامي له، وإعصامي بالأسباب المنتاطة به، واعتقادي فيه، أنه من أشرف ما صنف في علم العرب، وأذهبه في طريق القياس والنظر، وأعوده عليه بالحيطة والصون، وأخذه له من حصة التوقير والأون، وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة ونيطت به من علائق الإتقان والصنعة، فكانت مسافر وجوهه، ومحاسر أذرعه وسوقه، تصف لي ما اشتملت عليه مشاعره وتحي إلى بما خيطت عليه أقرابه وشواكله ، وترينى أن تعريد كل من الفريقين : البصريين والكوفيين عنه، وتحاميهم طريق الإلمام به، والخوض فى أدنى أوشاله وخللجه، فضلا عن اقتحام غماره ولججه، إنما كان لامتناع جانبه، وانتشار شعاعه، وبادى تهاجر قوانينه وأوضاعه وذلك أنا لم نر أحدا من علماء البلدين تعرض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقة، فأما كتاب أصول أبي بكر فلم يلمم فيه بما نحف عليه إلا حرفا أوحرفين في أوله وقد تعلق عليه به.[137]

وقد ذكر ابن جني بنفسه أنه اجتهد كثيرا لوضع الأصول والقوانين لما بينها في كتبه عامة و" الخصائص " خاصة، وهو يعترف بأنه مؤسس لها، وقليل ما كتب على هذا الموضوع من قبله، بل قال إنه حرف أو حرفين كما سبق آنفا أنه يقول في مقدمته: على أن أبا الحسن قد كان صنف في شيء من المقاييس كتيبا، إذا أنت قرنته بكتابنا هذا علمت بذاك أنا نبنا عنه فيه، وكفينا عنه كلفة التعب به، وكافأناه على لطيف ما أولناه من علوم المسوقة إلينا، المفيضة ماء البش والبشاشة علينا.[138]

وقد وضع ابن جني للغة والنحو أصولا على حد أصول الفقه والكلام والفلسفة، وقد نحى في كتابه الخصائص منحى جديدا طريفا يدل على تذوقه للغة وتوسعه فيها، أي الفقهاء الذين وضعوا للفقه أصولا والمتكلمين وضعوا لعلم الكلام أصولا، فأراد أن يضع للغة أصولا، وكان له فضل على وضع أصول اللغة العربية: ولم يتمم أحد من العلماء عمله في أن السيوطى قد فعل شيئا منه فى كتاب "الأشباه والنظائر" ولكنه قطرة إلى جانب بحر أبي الفتح"[139] لأنه كان من أعلى علماء العربية كعبا فى جميع عصورها، وأغوصهم عامة على أسرار علم العربية، والاهتداء إلى النظريات العامة فيها ونسب إليه ابتداع نظرية الاشتقاق الأكبر وتأسيس فقه اللغة.

كما ذكر صبحى صالح في كتابه " دراسات في فقه اللغة " أنشأ ابن جني أبو الفتح المتوفى سنة 392 هـ

---

[137] - الخصائص ج1 : ص – 1 – 2

[138] - المصدر السابق ج1 : ص – 2

[139] - عبقري اللغويين ج1 : ص – 128

الفقيه اللغوي العبقري كتابه الخصائص وراح يناقش فيه بفكره الثاقب ومنطقه السليم أبحاثا خطيرة في أصل اللغة أإلهام هى أم اصطلاح، وفي مقاييس العربية، واطرادا وشذوذها وتصاقب الألفاظ لتصاقب معانيها، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين، والاشتقاق الأكبر، وتركب اللغات واختلاف اللهجات ومع أن خصائص ابن جنى أجد الكتب أن تسمى بفقه اللغة ضن عليها مؤلفها بهذا الاسم.[140]

ولذلك يعد ابن جني من أعظم العلماء الذين قدموا نموذجا مشرقا لمباحث اللغة في التراث العربي المعرفي، فبدأت اللغة العربية فى خصائصه لغة لا تدانيها لغة لما اشتملت عليه من سمات حسن تصريف الكلام، والإبانة عن المعاني بأحسن وجوه الأداء، كما فتح أبوابا بديعة فى العربية، واجتهد كثير من علماء اللغة لوضع أصولها وقوانينها وتقليباتها واشتقاقها، ولكن لم يكن أحد يبلغ ما بلغ فيه، فالصاحبي لا يصل إلي درجة الخصائص ولايرتفع إلى درجة سرصناعة الإعراب، وإذا كانت كتب ابن جني لاينهض لها إلا المتخصص البارع فإن كتاب ابن فارس في متناول الجميع بل ينبغي أن يكون من كتب الثقافة اللغوية العامة.[141]

والحق أن عمل ابن جني في الاشتقاق الأكبر والتراكيب اللغوية والمباحث الكلامية والدراسات الصرفية التي خافها في كتبه العديدة هو العمل الجدي المثمر الذي طور مباحث اللغة وجعل لها أسلوبا جديدا، [142]

وكان ابن جني مشتهرا بدراساته اللغوية المستفيضة حتى عرف عنه أنه لغوي أكثر منه نحويا وإن تصفحنا كتبه ولاسيما " الخصائص " و " سرصناعة الإعراب " وجدنا دراسات في اللغة عميقة مستفيضة تنم على سعة الاطلاع ورسوخ قدم في هذا الباب ويتعارف اللغة وحدها : أنها أصوات يعبربها كل قوم عن أغراضهم، ويتكلم على نشأة اللغة، وذكر أن علماء اللغة اختلفوا في نشأتها وتطورها، وقال إن فريقا قال أنها وحي وتوقيف من عندالله وذكر أن استاده أبا علي الفارسي ذهب إلى هذا المذهب وهذا أيضا مذهب ورأي أبي الحسن وإن فريقا أخر قال إنما هي تواضع واصطلاح وذهب إلى هذا المذهب أكثر الباحثين من القدماء والمحدثين.

واعتل ابن جنى لمن قال بأنها لاتكون وحيا : "وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة قالوا ذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا، إذا ذكر عرف به مامسماه ليمتازعن غيره ويغني بذكره عن إحضاره إلى

---

[140] الدكتور صبحي صالح الطبعة الحادية عشرة دار العلم للملايين بيروت 1986 م ص – 23

[141] -أحمد بن فارس ، الصاحبي في فقه اللغة ، تحقيق مصطفى الشويمي ط بيروت 1964 م ج1 : ص – 19

[142] - عبقري اللغويين ج1 : ص – 129

مرآة العين فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف إحضاره لبلوغ الغرض عن إبانة حاله"[143]

وقد اجتهد ابن جنى لتطبيق بين نظرية التوقيف نظرية المواضعة والاصطلاح فقال هذا الا يتناول موضع الخلاف إذا تأولت هذه الآية الكريمة علم آدم الاسماء كلها أقدرآدم على أن واضع عليها وهذا المعنى من عندالله سبحانه لامحالة ولذا يرى أن استاذه أبا علي الفارسي لايمنع قول من قال إنها تواضع وهذا أيضا رأي أبي الحسن لأنهما قالا بالرأيين وكلا الأمرين أجازه أبوالحسن وأبوعلي.[144]

وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخريرالماء وشحيح الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل.[145]

ولم يكن ابن جني عالم اللغة فقط بل كان عالما بالغ الشهرة بالتصريف قال يا قوت ولم يكن في شيء من علومه أكمل منه في التصريف أدق كلاما منه وأضاف قائلا واعتنى بالتصريف فما أحد أعلم منه به ولا أقوم بأصوله وفروعه ولاأحسن أحد إحسانه في تصنيفه،[146] وقد ذكر محقق الخصائص الأستاذ علي النجار في مقدمة الخصائص: كان ابن جني إماما في الصرف بل كان أمثل وأقدر من النحو في الصرف وكان جده في الصرف أكثر وأبلغ من جده في النحو،[147] وبذلك تطور البحث اللغوي والنحوي والصرفي وارتقى حتى بلغ مستوي عاليا وهذا كان ابن جني الذي فتق الدرر الكامنة للغة من وراء ذكائه النادر وقدرته الفائقة على الاستيعاب وتمثل ما يسمعه أو يقرأه، وهو الذى رزق حظا عظيما جدا من الذكاء والحذق والبراعة والجد فى التحصيل والصبر عليه والدقة فى البحث والاستقصاء والرغبة الجامحة فكان لذلك كله أعظم تأثير فى تكوينه حتى أصبح إمام عصره في اللغة والأدب والنحو والصرف.[148]

<u>نزعات ابن جني اللغوية والنحوية والصرفية:</u>

هذه مما لاشك فيها أن المذاهب النحوية في عهد ابن جني ينقسم إلى ثلاثة، مذهبان قديمان أحدهما مذهب البصريين، والأخرمذهب الكوفيين، ومذهب حدث من خلط المذهبين وهومذهب البغداديين،

---

[143] - الخصائص ج1 : ص – 44

[144] - نفسه ج1 : ص – 41 في الحاشية

[145] - نفسه ج1 : ص – 46 – 47

[146] - ياقوت معجم الأدباء ج12 : ص – 81 – 91

[147] - مقدمة الخصائص : ص – 47

[148] - عبقري اللغويين ج1 : ص -

مع أن أئمة القرن الرابع الهجري قد شعروا بالحاجة إلى نهج يسيرون عليه، وإلى تناول مادة بحثهم على طريقة منظمة، وقد كان لمعرفة العرب بعلوم اليونان اللسانية أثر كبير في ذلك، وقد اقتفى علماء اللغة لمنهج ابن جنى في مؤلفاتهم واتخذوه طريق النظام لأن البحث قبله كان محتويا ومشتملا على المعلومات المتناثرة المفككة لا ربط بينها وعلماء اللغة والنحو عنوا بالجزئيات عناية بالغة.[149]

وقد بذل ابن جني قصارى جهوده إلى أن يربط هذا التفكك ربطا تاما بمعالجة الأصول اللغوية والكشف عن الأسرار اللغوية التي استقرت في الوعى الباطن لأجيال العرب ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه هو الذي عمل على تثبيت قانوني الاشتقاق الأكبر والتضمين إنما هو الذي نهض بذلك فهو الذي سماه وهوالذي جسمه في أمثلة مختلفة منها ق و ل تقلباتها ومشتقاتها وعقد تقاليب القول الستة هذه على الإسراع والخفة وعقد ك ل م تقليباتها ومشتقاتها على القوة والشدة وعقد ج ب ر تقليباتها ومشتقاتها أينما وقعت للقوة والشدة.

مثلا ذكر في كتابه " الخصائص " "تقليب ج ب ر فهي أين وقعت للقوة والشدة منها جبرت العظيم والفقير إذا قويتهما وشددت منها والجبر للملك لقوته وتقويته لغيره ومنها رجل مجرب إذا جرسته الأمور ونجذته، فقويت منته واشتدت شكيمته، ومنه الجراب لأنه يحفظ ما فيه وإذا حفظ الشيء وروعي اشتد وقوى، وإذا أغفل وأهمل تساقط ورذى ومنها والبجرة وهو القوى السرة ومنه قول على ـ صلوت الله عليه ـ إلى الله أشكو عجري وبجري تأويله همومي وأحزاني وطريقه أن العجرة كل عقدة في الجسد فإذا كانت في البطن والسرة فهي البجرة والبجرة تأويله أن السرة غلظت ونتأت فاشتد منها وأمرها وفترايضا قوله عجري وبحري أي ما أبدئ وأخفى من أحوالي ومنه البرج لقوته في نفسه وقوة مايليه به وكذلك البرج منقاء بياض العين وصفاء سوادها هو قوة أمرها وأنه ليس بلون مستضعف ومنها رجبت الرجل إذا عظمته وقويت أمره ومنه رجب تعظيمهم إياه عن القتال فيه، وإذا اكرمت النخلة على أهلها فمالت دعموها بالرجية وهو شيء تسند إليه لتقوى به والرجية أحد فصوص الأصابع، وهى مقوية لها الرباجي وهوالرجل يفخر بأكثر من فعله قال: وتلقاه رباجيا فخورا تأويله أنه يعظم نفسه ويقوى أمره".[150]

وعلى نحو ما عنى بالاشتقاق الأكبر وتطبيقاته على بعض الأبنية، عنى بالتضمين، وهو أن تشرب لفظا معنى لفظ وإذا كان فعلا أو مصدرا أعطى حكمه، كما ذكره في "الخصائص": "اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بحرف والآخر بآخر، فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع

[149] - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : ص – 417

[150] - الخصائص ج2 : ص – 135 – 136

صاحبه إيذانا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيئ معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه، وذلك كقول الله عز اسمه، " أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم " وأنت لا تقول: رفثت إلى المرأة وإنما تقول: رفثت بها، أو معها، لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء وكنت تعدى أفضيت به "إلى " كقولك أفضيت إلى المرأة، جئت ب"إلى" مع الرفث، إيذانا وإشعارا أنه بمعناه، كما صححوا عور وحول لما كانا في معنى اعور واحول وكما جاءوا بالمصدر فأجروه على غير فعله لما كان في معناه".[151]

وهذا ما لايشك فيه أن ابن جنى كان ماهرا للاشتقاق والتقليب طبقا لصاحب الحضارة الإسلامية، كانت دراسته جدية للاشتقاق اللغوي، وكان أستاذ هذه الدراسة، وهو البحث الذي لا يزال يؤتي ثمره إلى اليوم، والذى يختص بمادة الكلمة دون هيئتها ولم يكن لعلماء اللغة من العرب إنتاج أعظم منه.[152]

ذكر الباحث من ذي قبل أن المذاهب النحوية أو المناهج النحوية ثلاثة، وقد اختلف الباحثون في منهج ابن جني النحوي واللغوي، فهو بصري عند طائفة وبغدادي عند الآخرين، وذكر بعضهم أنه اتخذ لنفسه منهجا وسطا بين البصريين والكوفيين، كما يذكر غيرهم أنه صاحب مذهب مستقل، وكان في مذهبه المستقل ميلا إلى المذهب البصرى، وقبل تكوين الباحث رأيا لمنهجه يحسن أن يأتي بعبارات كتبه التي تدل صراحة، على منهجه ومذهبه في النحو واللغة، فهو يذكر في كتابه " سر صناعة الإعراب " عند قول الشاعر:

أن تهبطين بلاد قوم يرتعون من الطلاح

فهذا على تشبيه أن بما التي في معنى المصدر في قول الكوفيين فأما على قولنا نحن فإنه أراد أن الثقيلة وخففها ضرورة، وتقديره : أنك تهبطين "[153] والمراد " بقولنا نحن " البصريون، وذكر في كتابه، " المنصف " عن وزن ميت وما كان نحوه يقول: اختلف الناس أيضا في ميت وما كان نحوه، فذهب أصحابنا إلى أنه فيعل مكسور العين كأنه ميوت.... ثم يقول وأما البغداديون فذهبوا إلى أنه فيعل بفتح العين ثم ينقض رأيهم بالدليل.[154]

ويخالف مذهب البغدادين في كتابه " الخصائص " في "باب إسقاط الدليل" ومن ذلك قول البغداديين: إن الاسم يرتفع بما يعود عليه من ذكره نحو زيد مررت به وأخوك أكرمته ، فارتفاعه عندهم إنما هو لأن عائدا عاد عليه فارتفع بذلك العائد وإسقاط هذا الدليل أن يقال لهم: فنحن نقول زيد هل ضربته وأخوك متى كلمته؟ ومعلوم أن ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله.[155]

وهاجم مذهب الكوفيين في كتابه " المحتسب " عند الاحتجاج للقراءة " يقولان ربنا " في قوله تعالى : وإذ يرفع

---

[151] - نفسه ، ج 2 ، ص ، 136

[152] - الحضارة الإسلامية ج1 : ص – 417

[153] - سر صناعة الإعراب ج1 : ص – 35 ومقدمة الخصائص – ص – 44

[154] - ابن جني ، المنصف تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين الطبعة الأولى 1954 م بثلاثة أجزاء ج2 : ص – 15 – 17

[155] - الخصائص ج1 : ص – 199

إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا وهذا ما قد ذكره أصحابنا،[156] وفى سر الصناعة أيضا، فى حرف الكاف، فإذا قلت: أنت كزيد، وجعلت الكاف اسما فلا ضمير فيها، كما أنك إذا قلت: أنت مثل زيد فلا ضمير في "مثل" كما لا ضمير في الأخ ولا الابن إذا قلت: أنت أخو زيد، وأنت ابن زيد هذا قول أصحابنا وإن كان قد أجازه بعض البغداديين أن يكون في هذا النحو الذى هو غير مشتق من الفعل ضمير كما يكون في المشتق.[157]

وقد ذكر الأستاذ علي النجار في مقدمة "الخصائص" "ومن الجلي أنه يريد بقوله " أصحابنا " البصريين" [158] وجاء في " الخصائص " وأنشد البغداديون:

رجلان من ضبة أخبرانا إنا رأينا رجلا عريانا [159]

فينفرد ابن جني نفسه عنهم وذكر فيه وأصحابنا يجيزون حذف خبر إن من المعرفة "ويحكون عنهم إذا قيل لهم إن الناس إلب عليكم فمن لكم ؟ قالوا إن زيدا وإن عمرا أي إن لنا زيدا وإن لنا عمرا والكوفيون يألون حذف خبرها إلامع النكرة"[160] وذكر في موضع أخر" ومن ذلك ما يدعيه الكوفيون من زيادة واو العطف نحو قول الله عزوجل "حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها" (سورة الزمر) قالوا الواو هنا زائدة مخرجة عن العطف والتقدير عندهم فيها حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وزيادة الواو أمر لايثبته البصريون لكنه عندنا على حذف الجواب.[161]

وقد عد ابن جني نفسه " بقوله " "أصحابنا " أو" عندنا " أو" نحن " من البصريين وهذا ما يرى أيضا في غير كتابه الخصائص، وهو يذكر في كتابه "التمام":

لكنه شاقه أن قيل ذا رجب يا ليت عدة حولي كله رجب

يحكي الكوفيون ليت زيدا قائما على أن ليت الناصبة للإسمين جميعا، والأمر عندنا نحن بخلاف ذلك بل هي عندنا على بابها من نصب الإسم ورفع الخبر[162] ورأيه في هذا كرأي البصريين وذكر في موضع أخر:

فلما دنت م الأرض حتى تقربت إليها وحتى طبقت بالكلاكل

وقاموا إليها بالولايا فشمرت بها قردات الني شم الكواهل

قال: ولكن النظر في جواب (لما) أين هو؟ فأما على مذهبنا فإنه على حذف الجواب للعلم به وأما على قول البغداديين فإنه يجيئ على زيادة الواو.[163]

وبالتأمل في هذه النصوص التي أوردها الباحث تدل صراحة أن ابن جنى لا ينسب نفسه بالوضوح إلى

---

[156] - المحتسب ج1 : ص – 109

[157] - سر صناعة الإعراب ج1 : ص – 290 – 291

[158] - مقدمة الخصائص – ص- 45

[159] - الخصائص ج2 : ص – 338

[160] - نفسه ج2 : ص – 374

[161] - الخصائص ج2 : ص – 462

[162] ابن جني التمام في أشعار هذيل ، تحقيقد القيسي وصاحبيه ط بغداد 1962 م – ص – 168

[163] - نفسه _ ص – 240

البصريين، بل ينتمي نفسه إلى الحق، والحق عنده ما كان ومن عليه، ولذا نراه أنه يؤيد الحق وذويه ويساعدهم ويخالف غيرهم ويهاجمهم، كما أوضح الباحث لتحقيق الأمثلة السابقة، ومن يذكر أنه بغدادي فليس لهم دليل إلا أنه تعلم في بغداد ودرس فيها والأمثلة التي ذكرها الباحثون الذين يذهبون إلى أنه بغدادي فهم يعرضون هذا الدليل الذي ذكرها في " باب في ترك الأخذعن أهل المدركما أخذ عن أهل الوبر" سمعت الشجري أبا عبدالله غير دفعة بفتح الحرف الحلقي في نحو " يعدو " و " محموم " ولم أسمعها من غيره من عقيل ، فقد كان يردعليها منهم من يؤنس به ولايعد عن الأخذ بلغته وما أظن الشجري إلا استهوى أن كثرة ما جاء عنهم من تجريد الحرف الحلقي بالفتح إذا انفتح ماقبله في الاسم على مذهب البغداديين نحو قول كثيروقول أبي النجم :

وجيلا طال معداه فاشمخر أشم لايستطيعه التامس الدهر

وهذا قد قاسه الكوفيون وإن كنا نحن لانراه قياسا"[164] وقد ذكر فى كتابه الآخر المنصف "فأما أصحابنا فلا فصل عندهم بينه وبين ما ثنيه حرف غير حلقى..... فلا فصل بين نشر و نثر وشعر وشغر فهذان لغتان كما أن هذين لغتان"[165]

وهذه الأدلة التي استنبط منها بعض الباحثين أنه بغدادى و ليس كذلك لأنه يقول ابن جني بنفسه فهذان لغتان وهذا القول يدل على أنه يذهب هناك إلى السماع وكلاهما صحيح إن اتضح أم لا ؟ لأن كليهما وارد فى اللغة، ولا يقضي هذ االوفاق البغداديين أن يكون ابن جنى بغداديا فإن هذه مسألة ترجع إلى السماع و قد صح عنده كلاهما ولكنه طالما باق على أصول البصريين كما تذكر النصوص الواردة السابقة ولا يرضى لنفسه أن يكون بغداديا ويدافع صاحب الخصائص هناك أيضا عن رأي البصريين قائلا ..." إن حروف الحلق لا تحرك ساكنا ولا تسكن متحركا بل لعمري إنه يراد فيها الاتباع وتجانس الصوت فأما تسكين متحرك وتحريك ساكن فلا يجب لها.[166]

وهذا ما احتج ابن جني في كتابه المحتسب "إن يمسسكم قرح" آل عمران، بفتح الراء وأنا أرى في هذا رأي البغداديين في أن حرف الحلق يؤثر هنا من الفتح أثرا معتدا معتمدا فلقد رأيت كثيرا من عقيل لا أحصيهم يحرك من ذلك ما لا يتحرك أبدا لولا حرف الحلق... وهذا ما لا توقف في أنه أمر راجع إلى حرف الحلق لأن الكلمة بنيت عليه البتة.[167]

<u>حصيلة الكلام:</u>

كان ابن جني يتبع الحق ويصح ما كان صحيحا عنده فالحق أحق أن يتبع أين حل وصقع كما يتبع فى ألفاظ التوكيد التابعة لأجمع وأبتع، وهذا هو الرأي للبغداديين، وهو يقول بنفسه، "لا قرابة بيني وبين البصريين

---

[164] - الخصائص ج2 : ص – 109 – 110

[165] - المنصف ج2 : ص – 3 – 5

[166] - نفسه ج2 : ص – 3 – 7

[167] - المحتسب ج1 : ص – 67

ولكنها بيني وبين الحق والحمد لله "[168]

وهذا القول يدل صراحة أنه حر التفكير فلم يكن يتقيد المذهب البصري، بل كان يتفحص الآراء من بصرية وكوفية وبغدادية، ثم يفاضل بينها ويأخذ الصحيح منها، ولكنه كان مع ذلك ينزع غالبا إلى البصريين لكن لا عن حمية ولا عن عصبية، وإنما عن طول النظر والتبصر تبصرا كان يدفعه في كثير من الأحيان، وما ذكرته سابقا أنه ينتمي نفسه دائما إلى الحق أينما وجده وذلك هو الحق، وقد صور الدكتور محمد أسعد طلس تصويرا دقيقا على هذا القول: "ثم إنه ليس من شك في أن أبا الفتح على الرغم من انتسابه إلى المدرسة البصرية لم يكن مقلدا غيره من أئمة البصرة أو الكوفة أو بغداد، فإنه كان صاحب مذهب مستقل انفرد به، وكان يعمل فكرة في المسألة ويناقشها بعقله الواسع وتفكيره الصحيح ويستقصي أقوال الفصحاء والأعراب ثم يصدر حكمه فيها بعد التمحيص والتدقيق"[169] ويقول في موضع آخر: "إن أبا الفتح لم يكن مقيدا بمذهب مخصوص فلا كان بصريا ولا كوفيا ولا بغداديا ولا أندلسيا بل كان أمة مستقلا برأيه".[170]

المصادر والمراجع

- ابن جني، التصريف الملوكي، تحقيق محمد سعيد النعسان، الطبعة الثانية، دمشق، بدون تاريخ.
- ابن جني،التمام في أشعار هذيل ممأغفله أبو سعيد السكري،تحقيق الدكتور القيسي وصاحبيه،ط بغداد 1962 م.
- ابن جني، التنبيه على شرح مشكلات الحماسة، تحقيق عبد المحسن خلوصي ، مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب بمصر، بدون تاريخ.
- ابن جني، الخصائص، لأجزاء ثلاثة، تحقيق محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية 1956 م.
- ابن جني، الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي، تحقيق الدكتور محسن غياض، ط بغداد 1973 م.
- ابن جني، الفسر بشرح ديوان المتنبي، تحقيق الدكتور صفاء خلوصي ط بغداد 1970 م.
- ابن جني، المحتسب، تحقيق علي النجدي ناصف، والدكتور عبد الحليم النجار، والدكتور عبد الفتاح إسماعيل الشبلي، لجنة إحياء كتب السنة، القاهرة 1994 م.
- ابن جني، المقتضب من كلام العرب ضمن من ثلاث رسائل له، عنى بنشرها وجيه فارس الكيلاني ط مصر 1923 م.
- ابن جني، المنصف، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، الطبعة الأولى دار الكتب بمصر 1954 م.
- ابن جني، تفسير أرجوزة أبي نواس، تحقيق محمد بهجة الأثري ط دمشق 1966.

[168] - المحتسب ج1 : ص – 67

[169] - ابن جني النحوي - ص -235

[170] - نفس المصدر: ص - 176

- ابن جني، سر صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي، الطبعة الثانية، دمشق دار القلم 1993 م.
- ابن جني، مختصر القوافي ، تحقيق الدكتور حسن شاذلي فرهود ، الطبعة الأولى ، 1975 م.
- أبو الفداء إسماعيل بن علي، المختصر في أخبار البشر، تحقيق محمد ديوب، الطبعة الأولى، بيروت لبنان 1997 م.
- أبو علي الفارسي، الحجة في علل القراءات السبع، تحقيق علي النجدي ناصف وصاحبيه، الطبعة الأولى ط مصر، بدون تاريخ.
- أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، الطبعة الثالثة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر 1982 م.
- آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، الطبعة الثانية، ط لجنة التأليف 1957 م.
- جرجي زيدان، الفلسفة اللغوية، الطبعة الثانية، مكتبة الهلال بالفجالة مصر 1904م.
- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مطبعة دار الهلال 1930 م.
- د. إبراهيم السامرائي ، مباحث لغوية ، مطبعة الأدب في النجف الأشرف ببغداد1971.
- د. إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، مكتبة الأنجلو المصرية.
- د. إبراهيم نجا ، اللهجات العربية ، الطبعة السعادة ، بمصر، بدون تاريخ.
- د. حسام سعيد النعيمي، الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، الطبعة الأولى، دارالرشيد للنشر.
- د. حسام سعيد النعيمي، الدراسات اللهجية والصوتية، عند ابن جني الطبعة الأولى دار الرشيد للنشر، بدون تاريخ.
- د. حسين نصار، المعجم العربي نشأذته وتطوره، الطبعة الثانية، دار المصر 1968 م.
- د. شوقي ضيف، المدارس النحوية، الطبعة الرابعة، دار المعارف بيروت لبنان.
- د. صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، الطبعة الحادية عشرة، دار العلم للملايين بيروت1986 م.
- د. محمد شاطر أحمد محمد، الموجز في نشأة النحو، الطبعة الأولى الناشر مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة، بدون تاريخ.
- د. محمود السعران، علم اللغة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، بدون تاريخ.
- الزبيدي أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسي، طبقات النحويين واللغويين، الطبعة الثالثة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف بمصر، بدون تاريخ.
- الشيخ محمد خضري بك، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، ط9 1959 م.
- عبد الغفار حامد هلال، عبقري اللغويين ابن جني، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي،2006م.
- عبد الواحد بن علي، مراتب النحويين، مطبعة نهضة مصر، بدون تاريخ.
- فاضل صالح سامرائي، ابن جني النحوي، الطبعة الأولى، دار عمار 2005 م.

واقع اللغة العربية في ضوء كتاب "رحلة القسطنطينية ومصر والشام"

للعلامة شبلي النعماني

أ. د. محمود حافظ عبد الرب مرزا*

لا مِراء في أن للرحلات عظيم الأثر في تكوين شخصية السائح من حيث تزويده بمعلومات قيّمة عن تاريخ وحضارة وثقافة الوجهة التي يرغب في زيارتها، والتعرف على سكانها ومعالمها والاطلاع على ثقافاتها وتقاليدها وطقوسها، فضلاً عن الرغبة الملحة لديه في مقارنة أوضاع تلك البلاد الدينية والاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية وما إلى ذلك بالأوضاع السائدة في بلاده حتى يتسنى له وضع السبل المثلى في تحسين وضعه من جهة وأوضاع بلاده من جهة أخرى، ناهيك عن مدى إفادة الرحلات في توسيع آفاق الفكر ودائرة الاطلاع لدى السائح نفسه، بفضل اجتماع ثروة كبيرة من المعلومات والمعارف لديه خلال جولاته وصولاته. فالإنسان ومنذ أن دبّ على وجه الأرض يسعى إلى اكتشاف ما يحيط به من أسرارها بهدف التعرف على ما يكتنفه من الحياة، فالرحلات ليست إلا مظهراً من تلك المظاهر، وهي بمثابة منابع ثرّة لمختلف العلوم، وسجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور والأزمنة. ومن الملاحظ أن أدب الرحلات هو مجموعة الآثار الأدبيَّة التي تتناول انطباعات المؤلِّف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرَّض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق[171].

أما من الناحية الدينية، فإن من أحد مقاصد الرحلات في الإسلام الاعتبار والادّكار، فقد جاء في القرآن الكريم الأمر بالسير في الأرض في عدة مَواطن، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[172]، وقال عز مِن قائل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[173].

و يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

سافر تجد عوضاً عمَّن تفارقهُ وَانْصِبْ فَإِنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِي النَّصَبِ

إني رأيتُ وقوفَ الماء يفسدهُ إِنْ سَاحَ طَابَ وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ

ومما يجدر الإشارة إليه هنا أن كبار الأدباء والمؤرخين والجغرافيين والرّحالين في تاريخ العالم

---

* أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية والفارسية، جامعة إله آباد.

[171] موقع المعاني: (http://www.almaany.com).

[172] سورة الأنعام، آية رقم: 11.

[173] سورة النمل، آية رقم: 69.

سعوا إلى معرفة لغات الجهات التي اتجهوا إليها للتعرف وبكل دقة على كل ما يرغبون في معرفته عن سكانها وأنماط عيشهم وعاداتهم وتفكيرهم وأوضاع بلدانهم المختلفة. فمن هذا المنطلق، رأينا أن العالم الإسلامي والفيلسوف الكبير أبو الريحان محمد بن أحمد البَيروني (973م- 1048م) قد تعلم اللغتين اليونانية والسنسكرتية وألف كتاباً عن الهند، اشتهر باسم "تاريخ الهند"، والذي يُعتبر مصدراً هاماً ورئيسياً وموثوقاً به في حد ذاته.

وعلى هذا المِنوال، نجد أن العديد من الأدباء والكتاب والمؤرخين الذين زاروا بلداناً مختلفة في أصقاع العالم سعوا إلى سرد كل ما لاقوه خلال سفرهم وما شاهدوه في رحلاتهم فتناولوا مختلف القضايا نحو القضايا الإنسانية والمظاهر الاجتماعية السائدة في المجتمعات البشرية في بلدان العالم المختلفة تفصيلاً وإجمالاً، وسعوا إلى أن لا تفوتهم شاردة ولا واردة إلا ودونوها خلال رحلاتهم. ولكن لا ننكر وقوع بعض الأخطاء منهم في التعرف على الواقع الحقيقي في البلدان التي قاموا بزيارتها، لأن السائح يهدف إلى الحصول على المعلومات بشتى السبل والوسائل ويسعى إلى مشاهدة الأوضاع بعينيه وتحليلها وفق خبراته وتجاربه بدون التحقق من مدى انطباقها على عامة الشعب، وبالتالي، قد لا يستطيع عرض صورة واضحة أو صحيحة عن تلك البلدان وأوضاعها المختلفة، إلا أننا نعتبر تلك المحاولات بمثابة معلومات أولية عن تلك البلدان وشعوبها.

ومن أكبر الأخطاء الشائعة التي يقع فيها مؤلفو كتب الرحلات استنباط واستقراء الأصول الكلية من المسائل الفرعية، حيث يسعى السائح إلى تكوين آراء عامة عن الشعب بمجرد مقابلته لشخص أو فرقة أو مجموعة معينة، وذلك بناء على أخلاقهم وسلوكهم وطبيعتهم، مع أن هناك إمكانية كبيرة أن تكون تلك العادات والأطوار خاصة بأولئك الرجال وحدهم ولا تمت إلى الشعب بأسره بأية صلة.

وفي بعض الأحيان، نجد أن لدى السائح معلومات مسبقة عن الدول التي يقوم بزيارتها فلا يستطيع أن يخرج من فخ تلك الأفكار وقيودها أو يتخلص منها فيسرد أشياء لا تكفي للتوصل إلى نتيجة معينة وما إلى ذلك[174]....

ومن البديهي أن نرى ونشاهد في محيطنا الحالي هذه الأيام آلاف الكتب التي ألفت في هذا المضمار والتي تدخل في إطار "أدب الرحلات"، لأنها ليست إلا عبارة عن سرد للانطباعات الشخصية وتصوير لمظاهر الحياة في البلدان التي يزورها الأديب أو الرّحالة ويذكر عنها في مؤلفه. ولكن من

[174] الشيخ شبلي النعماني، سفرنامه روم ومصر وشام، دار المصنفين، شبلي أكاديمي، أعظم غراه، عام 2015م، ص: 17.

الصعب في هذه العُجالة إلقاء ضوء كاشف على مختلف جوانب الأعمال الأدبية التي تم إعدادها تحت هذا الإطار، وعليه سنكتفي بإلقاء نظرة خاطفة على رحلة قام بها الشيخ/ شبلي النعماني (1857- 1914م) طيب الله ثراه لبعض البلدان العربية وكيف وجد حال اللغة العربية فيها آنذاك، حيث نجده يقدم معلومات أولية عن اللهجات العامية والدّارجة لدى العرب آنذاك، فضلاً عن سعيه إلى توضيح معانيها وإعادتها إلى أصلها الفصحى حتى يتسنى لغير الناطقين بها الإلمام بها على أتم وجه، وعليه فإنه رحمه الله من أوائل العلماء الهنود الذين عرّفوا المجتمع الهندي بهذه اللهجات.

ومما لا ريب فيه أن علماء الهند وأدباءها لا زالوا يضطلعون بأدوار مثالية في تعلم وتدريس علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وأدب ومعان وبيان. فضلاً عن الدور الملموس في نشر العلوم الإسلامية في مختلف أصقاع العالم، مما ساهم في ذيوع صيتهم وانتشار علمهم، لأنهم قد بلغوا بالفعل شأوا كبيراً في هذا الصدد،

ولكن مع كل هذا وذاك، فإنهم كانوا يواجهون– بل لا يزالون إلى الآن- صعوبة بالغة في التحدث مع أبناء العرب وخاصة أثناء لجوء الأخير إلى التحدث بالعامية أو الدارجة لعدم إلمامهم بها وحتى في العصر الحاضر رغم كثرة الاحتكاك بأبناء العرب هذه الأيام وانتشار ظاهرة العولمة والإقبال الشديد الذي تشهده مواقع التواصل الاجتماعي كالفيسبوك، والتويتر، والإنستغرام، وغيرها مما سهل في معرفة أو على الأقل الإلمام ببعض مفرداتها.

ومما يثير العجب أن الشيخ شبلي النعماني، ورغم قلة احتكاكه بالعرب استطاع خلال جولة واحدة لبعض الدول العربية قبل أكثر من قرن ونصف الإلمام باللهجات العربية المختلفة والأساليب المستخدمة في التحدث والإحاطة بالاختلافات البسيطة في لهجاتهم إدراكاً منه بأنها هي – في أصلها – لغة عربية فصيحة، أصابتها مصائب مختلفة، ومن المستحيل ردها إلى أصلها بدون التعرف على تلك الأمراض والأدواء التي أصابتها.

فبعد عودته من جولة للقسطنطينية وعدد من الدول العربية، ألف رحمه الله، كتاباً عن هذه الرحلة أسماه "سفر نامه روم ومصر وشام"، (رحلة القسنطينية ومصر والشام)، تطرق فيه إلى العديد من اللهجات العربية التي كانت شائعة آنذاك، رغم أن هذا العمل يستحق جهداً كبيراً جداً لأن شيخنا لم يقض في البلدان العربية إلا فترة بسيطة ولم يكن له عهد بتلك اللهجات من قبل، فقد قضى حوالي ستة أشهر في جولته التي ضمت القسطنطينية ومصر والشام، فضلاً عن أن هدفه الرئيسي من هذه الزيارة كان يشمل جمع المصادر اللازمة لإعداد مؤلفات عن حياة أبطال الإسلام،

وإزالة الاعتراضات والافتراءات التي كان المستشرقون يوجهونها ضد الإسلام وأبطاله من حين لآخر، فضلاً عن انتهازه هذه الفرصة الثمينة لتغيير الأجواء لكثرة إصابته بالأمراض خلال إقامته في مدينة علي غراه وذلك أثناء توليه مهام التدريس في الكلية المحمدية الشرقية - الإنجليزية. ومع ذلك، استطاع رحمه الله بكل جدارة أن يلم باللهجات العربية الدّارجة هناك، ويُعرّف الأوساط العلمية الهندية بها، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدل على إلمامه الكامل باللغة العربية الفصحى وسرعة استيعابه لها ومدى ذكائه وفطانته.

وفي بداية المؤلف يذكر صاحبنا أنه كان يتألم ويسوءه صنع مسيحي أسباني كان يكره تعلم المستشرق البريطاني توماس أرنولد (1864-1930م) العربية، فكان يرِد إليه من حين لآخر ويقول له في لهجة مليئة بالازدراء والاستخفاف إنها أي (اللغة العربية) "لغة الإبل"، فكان هذا التألم والانزعاج خير دليل على مدى حب الشيخ للعرب والعربية[175].

ويشير صاحبنا إلى أنه قام بتأليف مؤلف بالعربية في عُنفوان شبابه باسم: "إسكات المعتدي على إنصات المقتدي" عام 1880م، حيث كان ذلك الكتاب عاملاً مهماً في الإشادة بجهوده ومساعيه من قبل أحد كبار الشيوخ في دمشق قائلاً: "شكر الله مساعيه"، فجلب هذا التقدير والإشادة بالغ السعادة والسرور له لأنه وجد أن مؤلفه قد لقي قبولاً واسعاً لدى الأوساط العلمية والدينية في البلدان العربية أيضاً[176].

كما أشاد صاحبنا في هذا المؤلف بأخلاق العرب وكرمهم وحسن تعاملهم وضيافتهم أيضاً، فضلاً عن إشادته بجهود المسيحيين العرب في نشر وطباعة كتب الأدب العربي في بيروت، وإبّان سعيه لمعرفة سبب هذا الشغف والحب والاهتمام الكبير بالأدب العربي لدى المسيحيين تبين له أنهم يفتخرون بكونهم من أصول عربية[177].

وفيما يخص واقع اللغة العربية في البلدان العربية آنذاك، ذكر الشيخ في مؤلفه قائلاً:

"بما أن من موجبات السفر التطرق إلى لغة البلدان التي يتم زيارتها فضلاً عن أوضاعها المختلفة، فإنني سأتحدث عن وضع اللغة العربية في مختلف مناطق مصر والشام، لأن أبناء البلاد الذين يحبون قراءة الصحف والجرائد الصادرة من مصر والشام ولكن يحيل عليهم الاستمتاع بها على أتم وجه لعدم إلمامهم بالعربية الرائجة

[175] المصدر السابق، ص: 22-23.
[176] المصدر السابق، ص 40.
[177] المصدر السابق، ص 135.

حالياً سيعود عليهم بالنفع والفائدة أيضاً"[178].

وألقى الشيخ شبلي النعماني الضوء على واقع العربية آنذاك وأفاد بأن العربية الحديثة مختلفة عن العربية الكلاسيكية نظراً لتغير اللهجات وكثرة استخدام أبناء العرب للهجات الدارجة بدلاً من التحدث بالعربية الفصحى وحتى مع غير الناطقين بها، حيث يقول:

"إن العربية الحديثة مختلفة عن العربية القديمة تماماً، ولذلك، سيواجه علماء بلادنا إبّان زيارتهم لمصر والشام صعوبة بالغة في فهم تلك اللغة أسوة بغيرهم"[179].

وبالتالي، قام صاحبنا بإلقاء الضوء على خصائص اللهجات العربية الدّارجة في العالم العربي آنذاك، ومن خلال هذه السطور سنقوم باستعراض تلك الخصائص ومن ثم التعليق عليها تدريجياً، وهي كما يلي:

أولاً: اختصار العديد من الكلمات حتى أصبح من المستحيل معرفة أصلها ما لم يتم توضيحها. ومن بعض الأمثلة على ذلك ما يلي:

- شو : أصله أي شيء، يستخدم للاستفهام.
- موش : أصله ما هو شيء، يستخدم في معنى حرف النفي.
- معليش : أصله ما عليه شيء: ومعناه لا بأس، لا حرج وهكذا.
- بلاش : أصله بلا شيء: يستخدم في معنى مجاناً أو لا بأس.
- هيك : أصله هكذا،
- هادول : أصله: هذه هؤلاء.
- قديش : أصله: قدر أي شيء[180].

التعليق:

- تستخدم كلمة "هادول" بدلاً من "هؤلاء" فقط ولا حاجة لذكر "هذه"، لأنه يتم استخدام "هادا" محل "هذا" أو "هادي" محل "هذه" حالياً ... والله أعلم.
- فيما يخص كلمة "معليش" فأصلها كما ذكر صاحبنا "ما عليه شيء" ولكن تم تحريفها لـ "معلش" وقيل: إن أصل استخدامها كان للقاضي وذلك إبّان تبرئته لشخص ما فيقول: (ما

[178] المصدر السابق، ص 203.
[179] المصدر السابق، ص 203.
[180] المصدر السابق، ص 203-204.

عليه شيء). وقيل أيضاً: إنها كانت تقال للمجنون أو السفيه (ما عليه شيء)، ولكن للأسف الشديد، ومع مرور الوقت فقدت معناها الأصلي وأصبحت تعبر عن الأسف. والله أعلم.

ثانياً: نجد أنه وفي بداية كل كلمة أو في آخرها يتم إضافة بعض الحروف، مما يؤدي إلى تغيير الكلمة تماماً، حيث يقوم أهل الشام بإضافة حرف "ب"، قبل أفعال المضارع، مثل ما بقول، وما بعرف بدلاً من ما أقول وما أعرف، وفي مصر، يضيفون في آخرها حرف "ش" مثل ياخذش بدلاً من يأخذ[181].

التعليق:

- يتم إضافة حرف "ب" قبل الفعل المضارع في كلتا الحالتين سواء سبقه ما النافية أم لا في معظم البلدان العربية. أما في مصر فإنهم لا يضيفون حرف "ش" في آخر الكلمة إلا إذا سبقها ما النافية مثل ما ياخدهاش، ما ياكلهاش، ما بيصرفهاش وهكذا، والله أعلم بالصواب.

ثالثاً: أصبح نطق الحروف سيئاً للغاية، بل ينبغي أن نقول بأن طريقة أداء حروف العربية قد فقدت خصائصها، حيث يتم استبدال حرف "ق" بالهمزة، وحرف "ج" بـ "گ" وحرف "ذ" بـ "د"، وحرف "ع" بالهمزة أيضاً. وهذا لا ينطبق على غير المثقفين فحسب بل على المثقفين أيضاً ناهيك عن العلماء والأدباء. ففي ذات يوم من الأيام في مصر سألت أحد الطلاب قائلاً: من أين أنت قادم؟ فرد علي "گائى من تگئه" (جاء من الجمعة)، أي قادم من المسجد بعد أداء صلاة الجمعة[182].

التعليق:

- إن نطق الأحرف عن طريق استبدالها بأحرف أخرى يؤدي إلى اختلاط الحابل بالنابل وإثارة التباسات أثناء التخاطب، مما يستوجب مراعاة ذلك، مع أن الناطقين بالعربية بإمكانهم تفادي ذلك، حيث نجد أن أهالي مصر مع استبدالهم حرف (أ) بحرف (ق) لا يلجأون إليه أثناء نطق كلمتي: القاهرة أو القرآن وهكذا. وأما فيما يخص " گائى من تگئه " فإنه قد وقع خطأ مطبعي لأنه من المفروض أن يكون وفق القاعدة المشار إليها والمعمول بها أيضاً " گائى من گمئه".

رابعاً: تغيّر استخدام العديد من الكلمات القديمة نحو "أستغفر الله"، لأننا إذا قمنا بالإشادة

---

[181] المصدر السابق، ص 204.

[182] المصدر السابق، ص 204.

بشخص ما أو الثناء عليه، فإنه يرد قائلاً: "أستغفر الله"، ويعني ذلك أنه لا يستحق كل هذا الثناء والتقدير، وإذا ما وقع أمر عجيب فإنهم يقولون: "أمان". وأما إذا كان عليهم أن يستفسروا قائلين: ماذا تريد؟ فيستخدمون بدلاً منه: شو بدك؟ شو مخففة من أي شيء، و"بد" هي نفس الكلمة التي نستخدمها مع كلمة لا بد[183].

التعليق:

- أرى أن بدّي الشامية (بكسر الباء)، مشتقة من الفصحى "بودِّي" مع إسقاط حرف الواو. حيث نجد استعمالاً لـ "وِدّي" في الدول الخليجية أيضاً، مما يؤكد على أن الأصل الفصيح للكلمة هي (بِودِّي)، بيد أن الخليجيين يستخدمون "أبغى" أو "أبي" بدلاً من كلمة "أريد" في محادثاتهم العامية بشكل عام. في حين نجد أن أهالي مصر يستعملون كلمة "عايز" لأجل ذلك، وهذه الكلمة هي من العَوِز وهو افتقار الشيء، مما يُفضي إلى الرغبة به، وهو المتحصل في الكلمة المصرية للفصحى "أريد". والله أعلم.
- يقول الدكتور/ محمد رضوان الداية، في كتابه معجم الكنايات العامية الشامية، وذلك خلال الحديث عن الكناية العامية الآتية: بدّك زلغوطة!: "بدّك: تحتاج إلى، تستحق، وأصلها "بودّي" للمتكلم، ثم خاطبوها بها فقالوا "بودّك"، وحرّفوها فقالوا: "بدّك": وحملوها المعاني القريبة"[184]. كما نجده يقول في عبارة: "بدّه يغطي السماوات بالقباوات": "وبده أي يريد (بودّه)"[185].

خامساً: كثرة استخدام الكلمات الأوروبية ببعض التغييرات البسيطة مما يجعلها غير مفهومة حتى لمن له علم ودراية تامة باللغة العربية أو الإنجليزية إلا بشق الأنفس. وعقبها قام بإدراج أمثلة على ذلك، مثل تلغراف، بروجرام، قوماندان وغير ذلك.

التعليق:

- شهدت هذه الظاهرة تزايداً حاداً هذه الأيام، مما يلقي بظلالها على العربية في حد ذاتها، فالواجب الحفاظ على اللغة العربية بواسطة التعبير بها في جميع الحالات لأن اللجوء إلى اصطلاحات وكلمات غير عربية يثبت مدى رعب أبناء العرب من تقدم الدول الغربية في

---

[183] المصدر السابق، ص 204.

[184] د. محمد رضوان الداية، معجم الكنايات العامية الشامية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، رجب 1423هـ الموافق أكتوبر 2002م، ص: 70.

[185] المصدر السابق، ص: 70.

مختلف مجالات الحياة... فالأحرى الاقتداء بالغرب لتحقيق التقدم والازدهار فقط والتشبث بالقيم الإنسانية والدينية وعدم التخلي عن العربية مهما كان الثمن.

سادساً: وفي نهاية المؤلَّف، قام صاحبنا بوضع قاموس بسيط للكلمات الدّارجة علّها تنفع كل من يرغب في معرفتها أو إتقانها.

ومما لا شك فيه، فإن الشيخ شبلي النعماني، استفاد من رحلته هذه حق الاستفادة من حيث جمع المواد اللازمة لإعداد كتب عن سير أبطال المسلمين والترفيه عن نفسه، والتعرف على أنظمة التعليم والثقافة في تلك البلدان ولا سيّما وضع الأدب العربي الحديث، كما استطاع بفضل تفاعله في هذه الفترة البسيطة مع أبناء العرب مباشرة أن يُلم بالعديد من اللهجات العربية الدّارجة، والتي لم يكن للهنود عهد بها من قبل، ولم يكن يعرفها كبار أساتذة اللغة العربية في الهند، فأوردها رحمه الله بشيء من التفصيل، وبالتالي، لا يزال هذا المؤلف وبالأخص الجزء الخاص بالعربية الدارجة منه يحظى بأهمية قصوى لدى أساتذة اللغة العربية وطلابها إلى يومنا هذا[186].

ولا مراء أن الهدف الأسمى من تطرق صاحبنا إلى تعريف اللهجات الدارجة لدى أبناء البلاد هو عسى أن تنفع كل من يسعى إلى معرفتها وإتقانها وبالتالي التفاعل مع أبناء العرب بسهولة أو على الأقل الاستجابة لما يقولون. فكان رحمه الله حقاً من رواد الهنود الذين سعوا إلى تعريف أبناء البلاد باللهجات العربية الدارجة، وتوكيد تبعيتها للفصحى، وضرورة نفض غبار الزمن عنها وردها إلى أسرتها.

وخلاصة القول هو أنه مهما ازداد حرصنا على تعلم العامية، فإنه يعاب علينا استخدام اللهجات العامية أو الدارجة أو العربية المحكية اليومية أثناء التحدث. ولكن في ظل العولمة الراهنة والمصالح المشتركة بين الأمم ونظراً لكثرة استخدامها أثناء التحدث والكتابة وخاصة بعد ثورة مواقع التواصل الاجتماعية وجدت الضرورة لتعلمها... ولكن طوبى لمن يستخدم الفصحى ويظل متمسكاً بها إيماناً منه بكونها لغة القرآن الكريم وأن الحفاظ عليها ونهضتها وإحياءها واجب ديني، مع أن الله سبحانه وتعالى قد أكرمها وفضلها وتكفل بالحفاظ عليها قائلاً: "إنا نحن نزلنا لاذكر وإنا له لحافظون"، فهي بإذن الله قائمة ودائمة تعم الفائدة وتعود بالنفع على كل من يتعلمها ويتكفل بتعليمها وتدريسها.

ومع ذلك، فإن الجهد الكبير الذي بذله رحمه الله لأجل الإلمام بهذه الكلمات الحديثة ونقلها

---

[186] د. عظمت الله الندوي، الشيخ شبلي النعماني وإسهاماته في ترويج اللغة العربية وثقافتها، عرشيه ببليكيشن، دلهي، 2015م، ط1، ص: 121.

لأبناء الهند يعتبر خدمة فريدة جداً لأنه استطاع من خلالها أن يحثهم على ضرورة إتقان العربية الدارجة أو على الأقل فهمها واستيعابها حتى لا يقعوا في المتاهات ويتعرضوا للمشاكل خلال زيارتهم للبلدان العربية. فجزاه الله عنا خير الجزاء وتقبل جهوده بقبول حسن. والله على ما نقول وكيل،،،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،

المصادر والمراجع

1- النعماني، شبلي، سفرنامه روم ومصر وشام، علامة شبلي النعماني، مجمع دار المصنفين، أكاديمية شبلي، مديرية أعظم جراه، 2015م.

2- الداية، د. محمد رضوان، معجم الكنايات العامية الشامية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، رجب 1423هـ الموافق أكتوبر 2002م.

3- الندوي، سيد سليمان، حيات شبلي، مجمع دار المصنفين، أعظم غراه، 1988م.

4- الندوي، محمد أكرم، شبلي النعماني، علامة الهند الأديب والمؤرخ الناقد الأريب، ط1، دار القلم، دمشق، 2001م.

5- الندوي، د. عظمت الله، الشيخ شبلي النعماني وإسهاماته في ترويج اللغة العربية وثقافتها، عرشيه ببليكيشن، دلهي، 2015م.

6- مرزا، د. محمود حافظ عبد الرب، الشيخ شبلي النعماني حياته وأفكاره، عرشيه ببليكيشن، دلهي، 2015م.

7- مجلة الدارسات العربية والفارسية، المجلد الأول، العدد الأول، يناير 2015م، قسم اللغة العربية والفارسية، جامعة إله آباد، إله آباد.

الشاعر الخليجي أحمد قنديل و شعره

الدكتور: عبد الحميد لون[187]

المدخل:

إن شعر المملكة العربية السعودية مر بثلاثة أطوار أو أجيال، وكانت لكل جيل أو لكل طور ظواهر فكرية وأدبية، وظهور نتاج الجيل الأول بحوالي سنة 1337 الهجري في أواخر عهد الملك حسين، وإن الجيل الثاني هو الذي شاهد عهد النهضة في المملكة وخرجت البلاد سنة 1348 للهجري من آخر قضايا الشعب البدوي، وانصرف الملك عبد العزيز إلى إعماد البلاد، الجيل الثالث محتو على الشعراء الذين ولدوا قبل أثناء أعوام النكبة الأولى لفلسطين ستة 1368 للهجري فشهد صباهم قرع طبول الحرب الدامية.

الأستاذ الأديب الشاعر أحمد قنديل يتعلق بالجيل الثاني وأكثر هذا الجيل هم الذين عاشوا في فترتي التخلف والنهضة، فعهدهم شهد اهتمام الدولة بالتعليم وانتقال الدولة من عهد التخلف إلى عهد التقدم لتحسن اقتصاديات البلاد بعد أن نبعت"آبار النفط".

فتطور الأدب من خلال الحفلات والمهرجات والنوادي في المدارس والدوائر والقاعات والبيوت، وهذا الجيل جيل وسط اتخذ أفراده مكانة لهم بين القديم والجديد معتمدين على أدب المصريين، قال عبد الله بن ادريس المولود في سنة 1349 للهجري في البحث عن شعر هذا الجيل في المملكة خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر، أنهم جيل القاعدة العريضة الشعرية الحديثة وقال محمود عارف (ولد عام 1329هـ)جيل التطلع والنضج، الذي بلغ بهم الشعر قمته[1]، فأحمد قنديل يعتبر من فحول الشعراء وأبرزهم، فنفخ في فضاء المملكة كثيرا من أغانيه وأناشيده الرائعة.

حياة الشاعر:

ولد أحمد قنديل في مدينة جدة سنة هـ 1332 المطابق 1913 م ونشأ بها ودرس في مدرسة الفلاح بجدة، وعين فيها أستاذا عند تخرجه منها، وكان قنديل منذ صباه ميالا للأدب الذي عكف على دراسة أمهات الكتب ودواوين الشعر... كما اطلع على أعمال كبار أدباء اللغات الأوربية وفلاسفتها من أمثال شكسبير و بايرون و موليرونيتشيه.

بعد أن عمل قنديل في مدرسة الفلاح مدرسا لمدة أعوام انتقل من جدة إلى مكة المكرمة وتولى فيها رئاسة تحرير جريدة "صوت الحجاز" إلى فترة من الزمن، ثم تقلب في عدة مناصب من الوظائف الحكومية

[187] الأستاذ المشارك و رئيس قسم اللغة العربية للكلية الحكومية بلوامه كشمير.drhamid.lone@gmail.com

من الوزارة المالية إلى أن أصبح مديرا عاما للحج لمدة ثلاثة عشر عاما، ثم تقاعد وتفرغ للأدب والإنتاج الفني الأدبي بجدة وكانت تمد الإذاعتين المسموعة والمرئية، وهو من المؤسسات الرائدة في مجال الأدب في المملكة العربية السعودية[2].

وكان أحمد قنديل من كبار الكتاب البارعين، وبعد أن اتسعت إذاعة جدة في برامجها كان من أوائل من كتبوا التمثيلات الشعبية والبرامج الثابتة مثل برنامج "زقزوق وظريفة" الذي لم يزل يكتبه منذ سنوات طويلة ولقنديل كتب مطبوعة كثيرة ومنها "كما رأيتها" و"الجبل الذي صار سهلا" كتابان مشهوران ومهمان في الأدب العربي الحديث، أما "كما رأيتها" فهو يوميات عن زيارته لمصر وأما "الجبل الذي صار سهلا" فقد قدم فيه ما يشبه السيرة الذاتية بدون ارتباط بتسلسل زمني في أسلوب رشيق، ونظم أحمد قنديل الشعر سن مبكرة وظل ينظمه فصيحا وبلهجة مدن الحجاز الدارجة إلى أن أدركته الوفاة في سنة 1399للهجري المطابق 1979 م.

شعره:

كان أحمد قنديل شاعرا متعدد الجوانب، فقد نظم الشعر الفصيح على النظام القديم و أجاد فيه ونظم شعرا حديثا متأثرا بمذاهب شعرية في البلاد العربية أما سبب لقبه بقنديل فهو أنه كان يقدم يوميا صورا شعرية في اللهجة الدارجة بعنوان "قناديل" تنشرها الصحف، وهى مصدر من مصادر التعرف على حياة الناسوأساليب عيشهم وتعالمهم وتفكيرهم في مكة وجدة، كان يسعى منذ شبابه إلى الخروج بشعره من إطار الإقليمية إلى آفاق الانشاء الواسع، ففي سنة 1365 من الهجرة اشترك في مسابقة نظمتها إذاعة لندن بين الشعراء، وكانت مشاركته في تلك المسابقة بقصيدة عنوانها "البلبل" فيها تجديد في أسلوب النظم التقليدي وهي نابغة من حسه الصادق وتجربته السعودية، فقال يخاطب البلبل:

الروض ما معناه يا بلبل	إن لم تغرد فيه أو تمرح
والزهر من يسكب في ثغره	سحر الهوى إن أنت لم تصدح
والجدول الرقراق ما حاله	إن غبت عنه جانبا تنتحى
والفجر ما يلقاه إن لم تطر	في صوته الساجي ولم تسبح
والورة الحسناء من ذا الذي	يثير فيها غيرة المستحى ا[3]

إلى آخر القصيدة الطويلة التي صاغها على شكل مقاطع مختلفة الروي متحدة في الموضوع والفكرة، كان قنديل من الشعراء الذين نادوا برفع شأن الوطن وناصروا قضايا الشعوب المستضعفة ودعوا إلى السلام وهتفوا للحرية، فقال يطالب بالثورة على الضعف:

عاش القوى مقدما وممنعا يمحو الضعيف ويستبد كما يريد
وعليه إكليل السادة صاغه بيد الدهاء وساعد البأس الشديد[4]

وأحمد قنديل صوفي يحب بلاده والبلاد عنده في مقام المهجة والدم والهوى، فيقول بالعاطفة الحارة مع المتانة في الأسلوب عن حبه لها:

بلادي بلادي لا عدمتك موطـــنا حبيبا إلى قلـبي ونفسي وخاطـــري
ذكرتك والذكرى من الحب روحه ومن خلجات النفس وحي الضمائر
وذكرتك في الأحياء همـــسة واحد وتـــــرد يـــد إيـــماء وقـــولة عابر
ولكنه في مهجتي ودمـي وهـــــوى سري كحياتي فيك مسري الخواطر[5]

وأهم صبغة اصطبغ بها شعر أحمد قنديل هى الشعر الوطنى والقومى وهو من أوائل من وسع الشعر القومي، لأن الشاعر شب على فصول المأساة الفلسطينية التي ظهرت بعد سقوط فلسطين بأيدي اليهود، وإن النكسة التي حدثت في الخامس من حزيران من عام 1967 م وبعده بسبب العدوان الإسرائيلي قد تناول موضوعها أكثر شعراء وكتب فيها كل أديب وشاعر ولكن هناك شاعرين خصص كل منهما ديوانا شعريا كاملا، أولهما أحمد قنديل وديوانه "نار" وثانيهما سعد البوادري وديوانه "صفارة الانداء" ولكن ديوان قنديل "نار" كان أسرع إلى الظهور من "صفارة الاندار" مع أنه مليئ برمزية موغلة في الخفاء، لا يمكن للأدب السعودي أن ينسوا من أعمال قنديل الجليلة ما قدم للمؤتمر الأول للأدباء السعوديين الذي عقدته جامعة الملك عبد العزيز في مكة المكرمة في مطلع شهر ربيع الأول سنة 1394 للهجري، وكان الأستاذ أحمد قنديل من أوائل من استجاب لدعوة الملك، فقد قدم له عملا شعريا كبيرا سماه "ملحمة الزهراء" التي طبعت ونشرت في المجلد الأول من كتاب "بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين"[6] وهو عمل شعرى طويل محتو على سبعة أقسام أرخ فيه للمملكة أهم الأحداث التاريخية القديمة والحديثة والمعاصرة بعقل مفكر وذاكرة تسجيلية وروح شاعر فنان.

القسم السادس من "ملحمة الزهراء" الذي خصصه لتسجيل أحداث الهجرة النبوية قال فيه تحت عنوان "من هنا يبدأ" فأبياته الأولى فيما يلي:

ها هنا من هنا سيد اليوم صاغ تاريخه للحياة ابتداها
فاتل آياتها الحسان توالت في سجل الخلود أنى تلاهـــا
إنها الهجرة الكـــــبيرة بالله فبالله عرمـــها ومضـــــاها
واذكر الغار والرفيق به الرحلة طابت في سيرها سراهـــــا[7]

والتزم أحمد قنديل في ذلك العمل الطويل كله قافية واحدة و رويّ واحد، وفي هذا ما يؤكد على سعة ثروته اللغوية ونفسه الطويلة.

من مميزاته الشعرية الروح القصصية التي تجعل شعره يحقق الوحدة العضوية أكثر من أي شاعر "اخر" ويوجد في شعره اندفاع وانسياب كما قال الدكتور عبد الله الحامد على الحامد يصور تصويرا صادقا لشعر قنديل: "إنه بقدرته البيانية الفائقة وأسلوبه السلس الرقيق يخفي على القارئ أثر الرحلة الطويلة مع القصيدة فتمر به المسافة كأنه في طيارة تقطع الأميال في دقائق محدودة دون أن يحس بها الراكب وإن كان القاعد أكثر أحساسا بها، وهذه القدرا يضاف إليها خيال الشاعر وروحه البرناسية القديرة على تحريك المشاهد والأحداث مما يضعه أيضا في عداد الوصافين البارعين"[8] وكان أحمد قنديل كثير الشعر مع الإجادة فيه ومن دواوينه المطبوعة "أغاريد" و"أصداء" و"أبراج" و"نار" كلها في اللغة الفصيحة و"المركاز" وهو في اللغة الشعبية، وستظل آثار أحمد قنديل الشعرية مصدرا من أهم مصادر وتاريخ الحياة الصافية في مدن الحجاز، وفي آثاره صورة حية للناس وطرق حياتهم ومعاشهم وتعاملهم وفيها التسلية والأدب والثقافة الاجتماعية.

نتيجة البحث:

هكذا أصبح الشاعر أحمد قنديل بهذا العطاء الأدبي الذي لا بأس به شاعرا سعوديا حداثيا الذي عاش عصره كشاعر له وعي تام عن قضايا أمته وآمالها، فعبر عنها خلال شعره تعبيرا يلائم العصر الذي ينتمي إليه دون مجافاة جارفة لأساليب الشعراء المتقدمين، فحداثته لا تقطع صلتها مع الموروث التاريخي، وقد سجل أدوار تاريخ الإسلام في نشأته الأولى في مهده الحجازي خلال شعره مما يشعرنا بأنه كان قوي الشعور بتاريخ قومه، مع ذلك لم يقتصر على المواضيع والأساليب القديمة في شعره، بل تجدد وورد على مناهل العصر وتفنن في المواضيع والأسلوب، وأثبت جدارته وراهنيته للقارئ الجديد، وأضاف إلى شعره قيمته خاصة بالسخرية التي خلطها به وبكلمات الدارجة الحجازية التى استخدمها فزاد شعره شعبية وجاذبية، وأصبح على طليعة الشعراء السعوديين المعاصرين الذي حظوا بقبول واسع لدى الجمهور العربى.

المصادر والمراجع

(1) د. عبد الله الحامد علي الحامد، الشعر المعاصر في المملكة العربية السعودية مطبعة الناشر الحامد 1992 ، ص 18.

(2) الدكتور عمر الطيب الساسي، الموجز في تاريخ الأدب العربي السعودي، مكتبة دار جدة، الطبعة الأولى 1986 م، ص 93.

(3) عبد السلام الساسي، الشعراء الثلاثة في الحجاز، دار الثقافة الإعلام الرياض 1948م، ص 67 – 66.

(4) الدكتور الشيخ بكري أمين، الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية،دار العلم للملايين ط5 1986م، ص 413.

(5) نفس المصدر، ص 330.

(6) مصطفى ابراهيم حسين،الأدباء السعوديون، بحوث المؤتمر،دار الرفاعي الطبعة الأولى الرياض 1994م، ج 1 ص 215-81.

(7) نفس المصدر، ص 171.

(8) الدكتور عبد الله الحامد علي الحامد، في الشعر المعاصر في المملكة العربية السعودية، ص 177.

الدكتور ظفر الإسلام خان ومساهماته في ترويج اللغة العربية

محمد سراج الإسلام[188]

المدخل:

يعد الدكتور ظفر الإسلام خان ممن أنجبت الهند من العلماء البارزين والكتاب الماهرين الذين ساهموا مساهمة كبيرة في تطوير اللغة العربية وإثرائها عبر العصور، وقد قام الكاتب بتنمية اللغة العربية من خلال كتابة الكتب العربية، وممارسة الترجمة، والقيام بعملية التدريس والمشاركة في مجال الصحافة ووسائل الإعلام. ويمتاز من الكتاب الهنود الآخرين بأنه متضلع في عدة لغات: من العربية والأنجليزية والأوردية والفارسية، ومتصف بالمهارة التامة في اللغة العربية والآنجليزية. وعمل مديرا ورئيسا ومراسلا صحفيا ومعلقا ومحللا ومذيعا في عدة قنوات وصحف وجرائد، وبالإضافة إلى أنه يتمتع بالرئاسة والعضوية لعديد من المجالس والمنظمات الرسمية أو غيرها. فيهدف هذا البحث إلى التعرف على حياة الدكتور ظفر الإسلام خان، وعلى مساهمته في اللغة العربية.

الدكتور ظفر الإسلام خان حياته وتعليمه:

ولد الدكتور ظفر الإسلام خان في بيت علم وتقوى سنة 1948م، وينتمي إلى مديرية أعظم جراه من ولاية أترابراديش في شمال الهند[189]. ويقيم الآن في منطقة جامعة نغر في دلهي الجديدة، ويعد أبوه مولانا وحيد الدين خان داعيا إسلاميا ومفكرا كبيرا وباحثا جيدا وكاتبا بارعا، ويشتهر بعلمه الغزير وأسلوب كتابته المنفرد في أوساط الناس في الهند وخارجها، فنشأ وترعرع ظفر الإسلام في هذه البيئة العلمية، ووجد فرصة طيبة للنهل من منابيع علم والده والتزوّد بحكمته.

تلقى الدكتور تعليمه الابتدائي في مدرسة الإصلاح بسرائ مير، في أعظم جراه. ثم توجه إلى لكناؤ للحصول على التعليم العالي، والتحق فيها بدار العلوم لندوة العلماء، وتخرج فيها حاملا على شهادة العالمية سنة 1966م. ثم سافر إلى خارج الهند مصر للحصول على مزيد من التعليم العالي، والتحق فيها بجامعة الأزهر، وتلقى فيها اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وحصل على شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي من كلية دار العلوم جامعة القاهرة عام 1978م[190]. ثم قصد إلى بريطانيا، والتحق فيها بجامعة مانشستر، ونال

---

[188] الباحث في الدكتوراه في جامعة جواهر لال نهرو

[189]. تاريخ اللغة العربية وواقعها في الهند، د. صهيب عالم، ص 190.

[190]. كان موضوعها هو "تاريخ المقاومة العربية في فلسطين خلال 1918- 1935م".

منها درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية سنة 1987م، وكان عنوان بحثه "مفهوم الهجرة في الإسلام".

نشاطاته العلمية والأدبية: مما لاشك فيه أن الدكتور ظفر الإسلام خان مفكر كبير، وباحث جيد، ومؤلف عظيم، وناشر، وصحافي بارع، ومترجم ماهر، ومذيع وإعلامي بالإضافة إلى أنه ناشط اجتماعي، ويعرف بنشاطاته العلمية والفكرية واهتمامه بالقضايا الاجتماعية في الأوساط العلمية في الهند وخارجها، ولدى الطبقات العربية وغيرها. كما هو معروف لدى القارئين بالعربية والإنجليزية والأردية، لكون كتابته وطلاقته في كل من هذه اللغات الثلاث.

مضى وقتا طويلا من حياته في خارج الهند، دامت رحلة طلب حوالي عشرين عاما خارج حدود شبه القارة الهندية، وفي ثنايا ذلك تعددت خبراته وتنوعت الوظائف التي شغلها. فساعدت هذه الرحلة العلمية على تضلعه في اللغة العربية والإنجليزية، وعلى تشكيل وجدانه وبناء شخصيته وتعيين أولوياته في الحياة. كما ساعدت صحبته مع المفكر والمنظر كليم صديقي طوال ما يقرب من عقد ونصف في لندن في بريطانيا. فلأجل هذا نجد حياته مرتبطة بشتى النشاطات العلمية. فهو تارة مذيع ومترجم للنشرة الأردية بالإذاعة المصرية (1972-1973م)، وتارة مترجم في الخارجية الليبية (1973- 1979م)، وتارة أستاذ زائر بجامعة الإمام بالرياض (1992م)، وتارة محاضر في الجامعة الملية الإسلامية في نيو دلهي (1991م).

في سنة 1979م، ترك الدكتور مصر وجاء إلى بريطانيا، والتحق بالمعهد الإسلامي في لندن، وعمل فيه كزميل باحث من 1979م إلى 1992م. وقد أنجز خلال تلك الفترة عددا من الأبحاث، وصنف كتبا، وحقق أخرى، فضلا عن ترجمته عددا من كتابات الراحل الدكتور كليم صديقي، وأشرف على تنظيم كل الندوات الدولية التي عقدها المعهد الإسلامي خلال تلك الفترة.

وبجانب من تمتعه بالرئاسة والعضوية في عدد من المحافل الإسلامية والمؤسسات الخيرية، عمل مديرا لمعهد الدراسات الإسلامية والعربية بمدينة دلهي الجديدة بالهند، وشارك في عدد كبير من الندوات والمؤتمرات في الهند وخارجها، وألقى الخطاب الرئيسي في كثير من الجامعات الهندية وغيرها. كما قام بالعقد والتنظيم عديدا من المؤتمرات الوطنية والدولية والحوار الدولي بين الإسلام و المذاهب الأخرى في لندن ودلهي. كما ساهم الدكتور خان بجمع عدة مواد عن تاريخ الإسلام وأعلامه في شبه القارة الهندية، لدائرة المعارف الإسلامية التي يصدرها نخبة من المستشرقين بمدينة ليدن بهولندا. وشارك في المجتمع، الكويت، الإصلاح، دبي، راديأينس، دلهي، ودلهي الوطنية والدولية، وغيرها.

مساهماته في تطوير اللغة العربية:

قام الدكتور ظفر الإسلام خان بالإسهام الكبير في تطوير اللغة العربية من خلال الكتابة، والترجمة، وإصدار الصحف والجرائد ووسائل الإعلام. وأناسب أن أذكر إسهامه في كل من المجال.

إسهامه في مجال الكتابة:

قد بدأ الدكتور ظفر الإسلام خان الكتابة والتأليف من العام 1968م، ويبلغ عدد مؤلفاته وكتبه نحو خمسين كتابا باللغات العربية والإنكلزية والأردية، ونشرت كتبه في القاهرة ونيودلهي ولندن وبيروت والكويت وغيرها. ومن كتبه المشهورة باللغة العربية، إنديرا غاندي: سيرة سياسية (القاهرة 1968م)، ودليل الباحث إلى إعداد الرسائل الجامعية والبحوث العلمية (بيروت 1996م)، والهجرة في الإسلام (نيودلهي عام 1996م)[191]، والمسلمون في بولاندا (بيروت 1997م)، والتلمود: تاريخه وتعاليمه (بيروت، 1971م)، وتاريخ فلسطين القديم منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي (بيروت، 1973م)، والوثائق الفلسطينية (نيو دلهي 1998م)، وتاريخ المقاومة الفلسطينية (1978م)[192].

وله أيضا عدد من المشروعات العلمية، أحدها بعنوان (الفهرست الكبير)، وهو عمل ببليوجرافي ضخم، ويحتوي على عشرين مجلدا، ويشتمل على الكتب والمقالات العلمية عن كل العلوم الإسلامية باللغات الرئيسة، وهو مشروع حضاري كبير قام بإعداده في نحو عقدين من الزمان.

مساهماته في مجال الترجمة العربية:

ترجم الدكتور خان عددا ضخما من الكتب من اللغة الأردية إلى العربية أو من اللغة الأنكلزية إلى العربية، قد ترجم من اللغة الأردية إلى العربية حوالي أربعين كتابا لوالده مولانا وحيد الدين خان. فمن أشهر كتبه المترجمة "الإسلام يتحدى مدخل علمي إلى الإيمان"، قام بتأليف هذا الكتاب والده مولانا وحيد الدين خان باسم "مذهب أور علم جديد كا جيلنج" باللغة الأردية، فعرّبه نجله ظفر الإسلام خان إذا كان يدرس بمصر وهو يناهز من عمره حوالي عشرين سنة، وقام بتحقيقه ومراجعته الدكتور عبد الصبور، وقد حاز هذا الكتاب مكانة خاصة في العالم العربي منذ ظهوره لأول مرة سنة 1970م، وقد طبع عدة طبعات، ويعد هذا الكتاب أول ما صدر من منشورات دار المختار الإسلامي بالقاهرة عام 1973م، كما نشر في دار البحث العلمي بالكويت، ودار البحوث العلمية بيروت. ويقول الدكتور متحدثا عن أهمية هذا الكتاب في مقابلة

---

[191]. هذا بحث الدكتوراه تم تقديم في جامعة مانشيستر في لندن.

[192]. هذه أطروحة ماجستير لجامعة القاهرة.

صحافية: "كتاب (الإسلام يتحدى) الذي ترجمته من أعمال الوالد، ونشر للمرة الأولى بالعربية سنة 1970م/ 1390هـ، هو بمثابة المرافعة الإسلامية ضد تحديات الأفكار الغربية الوضعية الوافدة التي ترفض الأديان، وتنكر أن يكون للكون خالقا... وقد نجح الكتاب باستخدام المعايير الغربية ذاتها في الاستدلال العلمي وباستخدام أدلة العلم الحديث نفسه أن يثبت أحقية الدين الإسلامي ويبرهن على وجود الخالق بأدلة علمية. وقد نجح فيه نجاحا كبيرا[193].

ويناسب لنا أن نذكر نموذجا من هذا الكتاب لكي نقف على مواد الكتاب وأسلوب الترجمة، "تعتبر التطورات العلمية التي حدثت في القرن الماضي "انفجارا معرفيا" Knowledge Explosion في وجه جميع الأساطير الإنسانية عن الآلهة والدين كما تفجرت الأفكار القديمة عن الماة ونسفت بمجرد تفجير الذرة... هذه هي قضية العلم الحديث الموجهة إلى الدين كما يقول البروفيسور جوليان هكسلي. وتعتبر الصفحات التالية ردا على هذا التحدي، فلقد كشفت أضواء العلم الحديث عن حقائق الدين، ولم تنجح من أية ناحية في الإساءة إليه. بل إن جميع ما وصل أو سيصل إليه العلم الحديث هو بمثابة تصديق لما أسماه الإسلام: "بالحقيقة الأخيرة" قبل أربعة عشر قرنا من الزمان: "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق[194،195].

علاوة عن ذالك الكتاب، الكتب الأخرى التي قام بترجمته: الإسلام والعصر الحديث (بيروت 1992م)، والدين في مواجهة العلم (المختار الإسلامي للنشر والتوزيع 1978م)، حكمة الدين: تفسير عناصر الإسلام ومقتضياته (المختار الإسلامي للنشر والتوزيع 1973م)، الدين في مواجهة العلم، (دار الاعتصام 1972م)، المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية (القاهرة 1994م)، والمسلمون بين الماضي والحاضر والمستقبل (القاهرة 1978م)، سقوط الماركسية (القاهرة 1987م)، تجديد علوم الدين: مدخل لتصحيح مسار الفقه والتصوف وعلم الكلام والتعلم الإسلامي (القاهرة 1986م)، وحقيقة الحج نشرته دار الصحوة بالقاهرة، والبعث الإسلامي المنهج والشروط، والشريعة الإسلامية وتحديات العصر، وإمكانات جديدة للدعوة، والتفسير السياسي للدين، والديمقراطية في الإسلام، الدين والدولة في الإسلام، والقضية الكبرى، وتاريخ الدعوة إلى الإسلام، خواطر وعبر، وعليكم بسنتي، ومن نحن، وما إلى ذلك.

كما ترجم أيضا بعض الكتب من اللغة الإنكليزية إلى العربية، مثل الحركة الإسلامية، وقضايا وأهداف،

---

[193]. من آفاق الكلمة، 28 سبتمبر 2012م.

[194]. سورة فصلت، الآية 53.

[195]. الإسلام يتحدى، مولانا وحيد الدين خان، مكتبة الرسالة، ص 9.

والتوحيد والتنسيخ، والثورة الإسلامية في إيران، والثورة الإسلامية، والمستقبل الوحيد لباكستان، والقومية والدولة الحديثة، وقضايا الحركة الإسلامية وغيرها.

مساهماته في مجال الصحافة و وسائل الإعلام:

مما لا ريب فيه أن الدكتور ظفر الإسلام خان قل ما نجد مثله من الصحفيين خاصة في الهند الذي ذاع صيته في مجال الصحافة العربية والأنكليزية والأردية، وقد نشر كثير من المقالات في مختلف من الصحف والجرائد منذ سنة 1967م، وهو يكتب بثلاث لغات وهي العربية والأردية والإنجليزية بطلاقة مماثلة. ومن المعلوم أن أخبار مسلمي الهند وأحوالهم لا تنشر إلا في الصحف الناطقة بالأردية، وهي محدود الانتشار بطبيعتها، ويتم التجاهل من نشرها عمدا في كل صحف صادرة باللغة الإنكليزية أو الهندية، فإن الدكتور أصدر جريدة مللي غازيت (Milli Gazaette) نصف شهرية باللغة الانكليزية، التي تعد أول جريدة صادرة باللغة الإنكليزية بالهند، وطمح في أن تتمثل جريدته لسان حال الهنود المسلمين، وأن يصل صوت مسلمي الهند عبر جريدته إلى غير المسلمين وغير الناطقين باللغة الأردية في ارجاء الهند وبالإضافة إلى الملائين خارج الهند.

تأسست مِلي غازيت –الناطقة بالإنكليزية- في ديسمبر عام 2000م لتكون لسان حال مئتي مليون مسلم يعيشون داخل جمهورية الهند. في بداية الأمر بدأت طبعتها الورقية بالصدور في 16 صفحة فقط، ثم زادت من العام 2009م إلى 32 صفحة تطبع بالألوان، لكنها في عام 2012م اضطرت إلى تخفيض عدد صفحاتها إلى 24 فحسب، للحد من خسائرها. وتوقفت عن الصدور بعد سبعة عشر عاما في نهاية العام 2016م للأسباب المالية، لأنه يصدرها بالجهود الذاتية وبدون تمويل خارجي، لكنها توقفت عن الطبعة الورقية فحسب، فلا يزال يصدرها على الموقع الإلكتروني، يمكن لمن يشاء قرأته أن يرجع إلى الموقع الألكتروني www. Milligazette.com

وكذالك رأس تحرير مجلته العلمية مسلم آند عرب برسبكتيفز (Muslim and Arab Perspectives) باللغة الإنكليزية منذ عام 1993م، كما أصدر الدكتور مجلة التاريخ الإسلامي (Journal of Islamic History) في نيودلهي منذ 1995م باللغتين العربية والإنكليزية، ومجلة المسلمون الهنود شهرية (2003- 2004م).

كذك حصل الدكتور خان على الترخيص من السلطات المصرية لإصدار مجلة "المختار الإسلامي" مع الحاج حسين عاشور، وكان الترخيص قصير الأجل، وواجب التجديد بصورة دورية، ولكن النظام المصري قد توقف عن تراخيص إصدار الصحف للأفراد، فقام الحاج حسين بتأسيس جمعية خيرية تصدر المجلة، وما زال تصدر الجمعية المجلة لمدة غير قليلة، ثم وقع الاختلاف بين الدكتور والحاج حسين حول محتوى المجلة،

وذلك لأنه قد صار الاتفاق بينهما بناء على أن مجلة المختار الإسلامي تكون الطبعة العربية لمجلة "الرسالة التي يصدرها والده في دلهي منذ 1975م، فكان يرغب الدكتور في أن يصدها مع علمية رصينة على غرار مجلة والده، مع إضافة مقالات لبعض الكتاب المصريين، وبينما كان الحاج حسين أميل إلى مجلة خفيفة أكثر شعبية، لتخاطب قطاعا أعرض من المسلمين. فترك الدكتور مصر وجاء إلى بريطانيا والتحق بالمعهد الإسلامي، وإلى جانب عمله فيه، أسس أول وكالة أنباء وموضوعات إسلامية باللغة الإنكليزية مسلم ميديا Muslim Media في لندن، وصار أول رئيس لتحريرها خلال أعوام 1981- 1984م.

كذا حرر عدّة مجلات ودوريات علمية وثقافية، وعمل مراسلا لصحف وجرائد عديدة، منها: جريدة الحياة (لندن 1992-1993م)، وعرب نيوز في جدة (1994- 1998م)، وصحيفة الرياض (1999- 2006م. وأقدم نموذجا لكتابته في جريد الرياض، فكتب بمناسبة منح الجامعة الملية الإسلامية الدكتورة الفخرية للأمير سلمان ووصفه ب"رجل الخير". "في حفل مهيب حضره رجال الدولة والإعلام ورجال السلك الدبلوماسي العربي قدمت الجامعة الملية الإسلامية شهادة الدكتوراه الفخرية لصاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير منطقة الرياض في قاعة أنصاري الجامعية الكبرى، اعترافا بإسهاماته الخيرية ودوره كقائد سياسي ذي سمعة عالمية. وقد قدّم الشهادة للأمير سلمان مدير الجامعة السيد نجيب جنغ بحضور رئيسة حكومة ولاية دلهي السيدة شيلا ديكشيت ومسؤلي الجامعة. وقد بدأ الحفل بكلمة ألقاها مدير الجامعة السيد نجيب جنغ ترحيبا بالضيف الكبير والتذكير بالعلاقات الهندية – السعودية الوثيقة، كما شرح تاريخ الجامعة الملية الإسلامية التي تأسست سنة 1920م، ولعبت دورا بارزا في حرب التحرير ضد الاستعمار الإنجليزي، كما أدت دورا ملحوظا في توطيد العلاقات الهندية العربية[196].

كما عمل محللا ومعلقا في القنوات التلفزيونية والإذاعية في الهند وخارجها عن القضايا المتعلقة بشؤون المسلمين في جنوب آسيا والعالم العربي. فعمل في بي بي سي راديو وتلفزيون في لندن، وصوت الأمريكية في واشنطن، وقناة الجزيرة في الدوحة، والراديو الكويتي في الكويت، قناة المنار في بيروت، وإذاعة الجمهورية الإسلامية في إيران، وفي الإذاعة لعموم الهند في نيو دلهي، وغيرها. ويكون ضيف شبه دائم على عدة منابر إعلامية، منها قنوات الجزيرة وبي بي سي العربية.

خصائص كتابته:

التركيز على شؤون الأقليات الإسلامية: نجد في كتابة الدكتور ظفر الإسلام خان التركيز الخاص على

[196]. جريدة الرياض، 15-04-2010م.

شؤون الأقليات المسلمة المتواجدة في أنحاء العالم وقضاياهم ومعاناتهم، لايزال ينشر المقالات والدرسات عن أمور الأقليات الإسلامية ومشكلاتها بالعربية والإنجليزية والأردية على صفحات الكتب والجرائد والصحف في مختلف البلاد، بل قام بتقديم سلسلة من الدراسات القيمة حول الأقليات الإسلامية في أنحاء العالم، والكتاب "المسلمون في بولاندا" جزء من هذه السلسلة. وذلك لأنه يؤمن بأن الأمة الإسلامية أمة واحدة، والمسلم أخو المسلم، فيجب على مسلم أن يشارك في الأفراح والأحزان لمسلم آخر ، ويسعى دعمه بأي أسلوب ممكن ولو بالكلمة الطيبة والدعاء الصالح. فيكتب الدكتور:"وانطلاقا من هذا الحس الإسلامي ظللت أتابع أحوال إخواني المسلمين في أنحاء الأرض منذ منتصف الستينات، وأكتب عنهم سواء أكانوا بفلسطين أو تشاد أو إرتيريا أو البوسنة أو كوسوفو أو لاؤس أو بورما أو سريلانكا أو الهند أو قطاني الخ... "[197].

يؤكد الكاتب على قيام الأمن والسلام والتعايش السلمي، كما أوضح هذا في المؤتمر الإسلامي الذي عقدته جامعة عليكرة الإسلامية في الهند، وشارك فيه بورقة بعنوان "الأمة تحتاج إلى مصالحة عظمى" فقال: إن وضع العالم الإسلامي خلال القرون الماضية لم يكن أسوأ مما هو عليه خلال العقدين الأخيرين، ودعا إلى تشكيل مجلس حكماء ينتقي أعضاؤه من خيرة العقول السياسية والدينية في أمتنا المسلمة بما فيه الأقليات الإسلامية، ويضع أسس وقواعد المعاهد الاجتماعية التي ستربط بين الحكام والجماهير في بلداننا، ويضع قواعد التعايش السلمي بين مختلف المذاهب والمسالك الإسلامية كما سيحدد أسس العلاقة مع القوى الخارجية[198].

أسس الدكتور خان جمعية (Charity Alliance) الخيرية الهندية، والتي تعمل للنهوض بحال مسلمي الهند، وتساعد الطلاب على مواصلة التلعليم، وتوفر الدعم والمساعدة للمسلمين في مواجهة الارتداد عن الإسلام في الأقاليم التي تنشط فيها جمعيات التنصير والهندكة. ونظرا إلى نشاطاته واهتماماته الإسلامية، قد تم انتخابه في يناير 2004م أمينا عاما لمجلس المشاورات الإسلامي لعموم الهند. ثم انتخب رئيسا للمجلس (2008- 2009م)، ثم عين رئيسا له بالنيابة خلال عام 2011م، ثم انتخب مرة أخرى رئيسا للمجلس 2012- 2013م)، وتكرر انتخابه للرئاسة في 2014- 2015م. وقام الدكتور ظفر الإسلام خان بوصفه الأمين العام لمجلس المشاورة الإسلامي لعموم الهند باللقاء مع معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي في مقر الرابطة بمكة المكرمة، وتم في اللقاء بحث عدد من القضايا المشتركة بين

[197]. المسلمون في بولندا، ظفر الإسلام خان، ص 5.

[198]. جريدة الشرق الإلكترونية، 27-04-2017م.

الرابطة ومجلس المشاورة الهندي ولاسيما القضايا المتعلقة بفقه الأقليات المسلمة في أنحاء العالم[199]. كما فوّضت إليه رئاسة اللجنة الأقلية في دلهي من اليوم الخامس وعشر من شهر يونيو عام 2017م، ويستمر لمدة ثلاث سنوات.

العناية بقضية كشمير:

اعتنى الكاتب بقضية كشمير عناية بالغة، و فقد وظيفته في جريدة الرياض لأنه دأب على الكتابة عن معاناة المسلمين في الهند، خصوصا انتهاكات الجيش الهندي لحقوق الإنسان في كشمير، فاتصل معه السفير السعودي هاتفيا ذات يوم، وقال له: "نحن نحاول بناء علاقات جيدة مع الهند وأنت تدمر هذه الجهود، فلا تكتب بعد اليوم شيئا قد يؤثر على هذه العلاقات، وقد كان ما يكتبه عن معاناة المسلمين واضطهادهم يعكّر صفو هذه العلاقات بطبيعة الحال"[200].

من الجدير أن تتضح هذه الحقيقة، أن الكاتب ينكر المشاكل والمظالم التي يواجهها الكشميريون، ولكنه لايؤيد انفصال منطقة كشمير عن الهند، كما أوضح رأيه عن قضية كشمير في حوار مع صحفي وباحث مصري، حينما سئل عن قضية كشمير، هل يؤيد مسلموا الهند الاستقلال لكشمير المسلمة عن الهند؟ فقال إجابة عليه: من غير المقبول منطقيا أن نضحي مصالح 131 مليون مسلم عندي حتى ولو كانوا أقلية من أجل رغبة 4 مليون مسلم كشميري يريدون الانفصال حتى ولو كانوا أغلبية الإقليم، ولم يحدث أن شارك مسلم هندي في المعارك الدائرة في كشمير في صفوف الثوار[201].

العناية بقضية فلسطين: اعتنى المؤلف بقضية فلسطين عناية تامة لكون ارتباطه بها دينيا وإنسانيا، وقام بإصدار عدة مؤلفات حول قضية فلسطين وجذور المسألة الفلسطينية واليهود، بل تخصص في هذا الموضوع، وكان عنوان بحثه في الماجستير في جامعة القاهرة "تاريخ المقاومة العربية في فلسطين خلال 1918-1935م" وعلاوة عن ذلك، كتب كتاب "تاريخ فلسطين القديم منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي"، "والوثائق الفلسطينية"، و"التلمود: تاريخه وتعاليمه"، كما كتب عنه في الجرائد الصحف والمجلات باللغات المختلفة، وبجانب إلى ذلك، قام بعقد المؤتمرات والمقابلة الكتابية بين الدارسين والباحثين حول هذه القضية العالمية، لكي يعلمها الجيل الجديد. مما لاشك فيه أن الدكتور وقف دائما بجانب من الفلسطينيين المظلومين، وضد الصهيونيين الغاصبين، وقام بتعرية أغراض اليهود والغرب. وظل موقفه من قضية

---

[199]. جريدة الرياض، العدد 13799، 5 أبريل 2006م.

[200]. www.ida2at.com

[201]. tammam.org

فلسطين موقفا ثابتا، أن أرض فلسطين للفلسطينين العرب، وأن اليهود ليس لهم أي حق فيها تاريخيا ودينيا وسياسيا، فيكتب "لم يكن اليهود في تاريخ فلسطين الحافل إلا لاجئين أو عابري سبيل أو مغتصبين لجزء من الأرض التي صنعت التاريخ... وأن ليس لليهود "ساميين وغير ساميين" أي حق في فلسطين، وأن الصهيونيين الذي قدموا إلى فلسطين واغتصبوا أرض العرب ليسوا ساميين أصلا، ولاتوجد رابطة نسبيئة تربطهم بإسرائيل "يعقوب" الذي يطلقون اسمه على دولتهم"[202].

يؤكد على حل عادل لهذه القضية، فيقول في مقابلة صحافية: لو لم نستعد القدس والجولان، وقامت دولة فلسطينية في أرض منزوعة السلاح، بينما إسرائيل تمتلك أنواع الأسلحة الذرية والكيماوية والجرثومية، وبقيت المستوطنات اليهودية، وبقي اللاجئون الفلسطينيون في مخيماتهم، فأي سلام وأي عدل وأي حل للقضية العربية؟[203]

اللغة والأسلوب: يختار الدكتور خان في الكتابة والترجمة الأسلوب العلمي الواضح الذي يؤدي الرسالة ويقنع، ويوفق بين حسن الفكرة وجمال الصورة، ويلائم بين سمو المعاني وجزالة الألفاظ، ويتصف أسلوبه كأسلوب والده في اللغة الأردية، بأسلوب حديث وسلس وممتع وجذاب وأخاذ، ويستخدم الكلمات السهلة والمتداولة في مجال الصحافة ووسائل الإعلام، فلا يمل ولايكل طبع القاري من قرأتها.

المصادر والمراجع

1 الإسلام يتحدى، مولانا وحيد الدين خان، وتعريب الدكتور ظفر الإسلام خان، مكتبة الرسالة، دهلي الجديدة، 2005م.

2 تاريخ اللغة العربية وواقعها في الهند، د. صهيب عالم، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللغة العربية، الرياض، الطبعة الثانية 2016م.

3 تاريخ فلسطين القديم منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي، الدكتور ظفر الإسلام خان، الطبعة الثالثة 1981م، دار النفائس، بيروت.

4 جريدة الرياض، صحيفة يومية، المملكة العربية السعودية.

5 جريدة الشرق الإلكترونية.

6 المسلمون في بولاندا، الدكتور ظفر الإسلام خان، الطبعة الأولى 1991م، مؤسسة الرسالة بيروت.

[202]. تاريخ فلسطين القديم منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي. الدكتور ظفر الإسلام خان، ص 204.

[203]. من آفاق الكلمة، 28 سبتمبر 2012م.

قراءة في كتاب "حياتي" للمفكر الإسلامي الفذ أحمد أمين المصري

(1886 - 1954)

عبد الحكيم*

المدخل:

إن السيرة الذاتية فن من الفنون الأدبية التي توجد في جميع اللغات العالمية الحية، وهي سرد متواصل يكتبه شخص ما عن تجارب حياته الماضية، ولوعدنا قليلا إلى تاريخ هذا الفن لوجدنا أن أول من كتب كتابا مستقلا في فن السيرة الذاتية هو الأديب الفرنسي الشهير جان جاك روسو، وبعد ذلك لا يزال يتبعه عدد كبير لا بأس به من الأدباء الغرب والعرب على حد سواء، ولو أمعنا النظر على أدبنا العربي فوجدنا أن عددا كبيرا من الأدباء قاموا بدور هام في تطور السيرة الذاتية في الأدب العربي منهم ابن حزم الأندلسي الذي كتب سيرته الذاتية باسم "طوق الحمامة في الألفة والآلاف"، وابن الجوزي الذي دون مذكراته بعنوان "لفتة الكبد"، وفي العصر الحديث ثمة زمرة من المشتغلين بالأدب الذين قد مارسوا بكتابة هذا الفن الأدبي وأخرجوا للمكتبة العربية عددا هائلا من المؤلفات الهامة منهم الكاتب المعروف أحمد فارس الشدياق الذي كتب سيرته الذاتية بعنوان " الساق على الساق فيما هو الفارياق"، وسرعان ما أنتج هذا الفن الأدبي عددا كبيرا لا بأس به من الأدباء منهم الدكتور طه حسين الذي كتب سيرته الذاتية باسم "الأيام"، كما كتب أحمد أمين المصري سيرته الذاتية بعنوان "حياتي" والتي نالت شهرة كثيرة لدى الأوساط العلمية والأدبية في أساليبها وطرحها، ونحن الحديث عنها في هذا المقال الوجيز.

إن هذا الكتاب المسمى بـ"حياتي" عبارة عن سيرة ذاتية للمفكر الإسلامي والكاتب الكبير والأديب الموهوب صاحب "فجر الإسلام، وضحى الإسلام، وظهر الإسلام" الأستاذ أحمد أمين المصري، هو الكتاب الذي أصدرته دار الشروق المصرية بالقاهرة في ميئتين وخمسين صفحة من القطع المتوسط في عام 1950م، كتب الأستاذ أحمد أمين هذا الكتاب وسرد فيه بأسلوب رائع جذاب وشيق ما مر به من تجارب واسعة وخبرات فائقة من حياته الشخصية بدء من مرحلة الطفولة والصبا والشباب التي قضاها في الكتاتيب المختلفة بالإضافة إلى مدرسة أم عباس الابتدائية النموذجية التي شيدتها إحدى إميرات القصر الملكي، قبل أن نتحدث عن الكتاب لا بد لنا أن نلقي ضوءا خفيفا على حياة صاحب الكتاب ومساهماته في الأدب والعلم لكي نطلع على سيرته الذاتية وخدماته التي قام بها في مجال الأدب العربي الحديث.

كان الأستاذ أحمد أمين كاتبا قديرا وناقدا كبيرا ومفكرا عميق الأثر له باع طويل في مجال التأليف والتصنيف، قد خلف وراءه ذخيرة علمية متنوعة وملأ الدنيا بمقالاته وبحوثه القيمة وإذاعاته وأحاديثه النادرة ومن أهم انتاجاته الأدبية النادرة، فجر الإسلام (الناشر: مكتبة النهضة المصرية)، ضحى الإسلام (ثلاثة أجزاء) الناشر: (مكتبة

* الباحث في الدكتوراه مركز الدراسات العربية والإفريقية بجامعة جواهر لال نهرو دلهي الجديدة.

النضهة المصرية)، ظهر الإسلام (أربع مجلدات) (الناشر: مكتبة النهضة المصرية)، يوم الإسلام (الناشر: مكتبة النهضة المصرية)، حيى بن يقظان (الناشر: دار المعارف القاهرة)، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية (الناشر: مكتبة المنهضة المصرية)، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، الناشر: مكتبة النهضة المصرية)، الأخلاق (الناشر: لجنة التأليف والترجمة والنشر مصر)، حياتي (سيرته الذاتية) الناشر: مكتبة الآداب، وسوف نتحدث عنها إنشاء الله من حيث الدراسة التحليلية في هذا المقال الوجيز.

كلمات موجزة عن الكتاب "حياتي".:

إن هذا الكتاب المسمى بـ"حياتي" هو سيرة ذاتية للمفكر والباحث الإسلامي الفذ أحمد أمين المصري، هو الكتاب الذي قد ظهرت طبعته الأولى في عام 1950م، من دار الشروق المصرية بالقاهرة في ميئتين وخمسين صفحة من القطع المتوسط، ثم صدرت طبعته الثانية بعد عامين وتوالت طبعاته المتكررة حتى اقتربت من العشر، كتب أحمد أمين هذا الكتاب بأسلوب رائع جذاب خلاب شيق وممتع للغاية، وسرد فيه ما مر به من تجارب واسعة وخبرات فائقة في حياته الشخصية بدء من مرحلة الطفولة والصبا التي قضاها في الكتاتيب المختلفة والمدارس المتنوعة ولا سيما مدرسة أم عباس الابتدائية النموذجية التي شيدتها إحدى أميرات القصر الملكي، والتي قد انتقل بعدها إلى الدراسة والقراءة في جامعة الأزهر ومدرسة القضاء، ومرورا بمراحل الطفولة والصبا والشباب والكهولة التي تنقل فيها بين مناصب القضاء والتدريس ورئاسة التحرير في العديد من الصحف والمجلات العربية الصادرة من القاهرة ثم انتهاءا بوصوله إلى الجامعة التي عين فيها أستاذا بارزا وعميدا لكلية الآداب، وأن الكتاب في المعنى الحقيقي ليس من السيرة الذاتية فقط بل هو يعد وثيقة تاريخية مهمة من شاهد عيان عايش تلك الأحداث الفاجعة ورأي بعيينه آثارها وانعكاساتها على المجتمعات المصرية.

الدوافع التي دفعته إلى كتابة هذا الكتاب:

يعد الكتاب "حياتي" خير كتاب ومرجع تاريخي هام للنهضة المصرية الحديثة وللحركات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي واكب أحمد أمين مسيرتها في عصره منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، قد سرد فيه الشيخ أحمد أمين سردا مفصلا عن سيرته الذاتية منذ أيام الطفولة والصبا والرجولة والشباب والكهولة حتى قبيل وفاته، وأن الشيخ أحمد أمين قد دون هذا الكتاب بعد ما تجاوز نحو الرابعة والستين من عمره، وعندما نلقي نظرة عابرة على هذا الكتاب من السيرة الذاتية وجدنا أنه يعد من أفضل وأروع السير الذاتية في الأدب العربي الحديث الذي سجل فيه الأستاذ أحمد أمين أحوال سيرته الذاتية مما مر به في حياته في القرن العشرين، وعرض فيه ترجمته الشخصية منذ الطفولة إلى الكهولة، فلعل هذه التوطئة تجبرنا على أن نسأل عن أنفسنا بأنه لماذا كتب الأستاذ أحمد أمين سيرته الذاتية؟ وما هي البواعث التي دفعته إلى كتابة هذه السيرة الذاتية باللغة العربية؟ هذه هي التساؤلات التي تأتي في أذهاننا كما تأتي في أذهان كل من يرغب في قراءة هذا الكتاب القيم، عندما نحاول إجابة هذه التساؤلات المتكررة فالأمر الذي يشد انتباهنا بقوة تامة هو طبيعة الأحداث

المتناسية والظروف القاسية التي حدثت معه خلال أيام الطفولة والصبا والكهولة.

كما عبر الأستاذ أحمد أمين عن مشاعره وخواطره وأبرز مما دفعته إلى كتابة هذه السيرة الذاتية يقول " فلماذا- إذا- لا أؤرخ، "حياتي" لعلها تصور جانبا من جوانب جيلنا، وتصف نمطا من أنماط حياتنا، ولعلها تفيد اليوم قارئا، وتعين غدا مؤرخا، فقد عنيت أن أصف ما حولي مؤثرا في نفسي، نفسي متأثرة بما حولي، نبتت عندي فكرة تاريخ حياتي، منذ أول عهد شبابي، فقد رأيتني أدون مذكرات يومية عن رحلاتي، وعن حياتي في الأسرة وأيام زواجي، ووجدتني أسجل في المفكرات الستوية أهم الأحداث السنة، وما يسوء منها وما يسر، ولكن لم يكن كل ذلك عملا منظما متواصلا، بل كان يحدث في فترات متقطعة- ثم نمت الفكرة وشغلت بالي في العام الماضي، فكنت أعصر ذاكرتي لأستقطر منها ما اختزنته من أيام طفولتي إلى شيخوختي، وكلما ذكرت حادثة دونها في إيجاز ومن غير ترتيب- فلما فرغت من ذلك ضممته إلى مذكراتي اليومية، ثم عمدت- في الأشهر القريبة- إلى ترتيبه وكتابته من جديد على النحو الذي يراه القاريء من غير تصنع ولا تألق"[204].

القضايا المهمة التي تناولها الكتاب:

يعد الكتاب "حياتي" تأريخا معاصرا للثقافة والحضارة والفكر الإسلامي من البداية، فهو الكتاب الذي صدرت طبعته الأولى في عام 1950م وجاءت طبعته الثانية بعد عامين ثم بعد ذلك توالت سلسلة من طبعاته حتى اقتربت من عشر طبعات، جاء الكتاب في طبعته الأولى مع مأتين وخمسين صفحة من القطع المتوسط ولكن النسخة التي بين أيدينا مشتملة على ميئتين وثمان وأربعين صفحة تقريبا، يوجد فيه السابع والثلاثون فصلاً من الفصول دون مقدمة قيمة نادرة، يعد هذا الكتاب "حياتي" من أهم الكتب في مجال السيرة الذاتية التي ألفه وصنفه وكتبه الأستاذ أحمد أمين وسرد فيه سردا مفصلا من تجارب حياته الماضية التي مر بها منذ الطفولة والشباب حتى الكهولة، والكتاب هو خير كتاب ومرجع تاريخي للنهضة العربية المصرية الحديثة وللحركات السياسية الاجتماعية والاقتصادية منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين.

عندما ندرس هذا الكتاب فالأمر الذي يشد انتباهنا بقوة هو أن الأستاذ أحمد أمين سرد فيه بأسلوب رائع رصين وشيق تجارب حياته الواسعة التي مر بها في مراحل حياته الفنية والأدبية وأسفاره ورحلاته وجولاته عبر الأمصار والمدن والبلاد المختلفة الأخرى، وكذلك نراه أنه تحدث فيه من تجارب حياته القاسية المرة التى قضاها في الكتاتيب المختلفة وفي مدرسة أم عباس الابتدائية النموذجية التي شيدتها إحدى أميرات القصر الملكي، وكذلك ذكر فيه عن مساهماته القيمة التي قام بها في كثير من المؤتمرات والندوات والاجتماعات والجلسات في أوربا الغربية والشرقية وغيرها من البلاد الأخرى، كما ذكر فيه عن العديد من الأدباء والكتاب المفكرين المصريين الذين عاصرهم في حياته مثل: الدكتور طه حسين وأحمد لطفي السيد وأحمد حسن الزيات والدكتور عاطف بركات وغيرهم الكثير.

[204] أمين، أحمد، : حياتي، (الناشر: كلمات العربية للترجمة والنشر القاهرة جمهورية مصر العربية 2011م) ص: 09

وكذلك تحدث الأستاذ أحمد أمين في هذا الكتاب عن نشاطاته العلمية والأدبية الفنية التي قام بها كونه عضوا في المجمع اللغوي المصري وفي مجلس دار الكتب ومجلس كلية الآداب ودارالعلوم ولجنة التأليف والترجمة والنشر التي ظل رئيسا لها أكثر من ثلاثين عاما، كما أنه تحدث في هذا الكتاب عن مشاركاته في إخراج مئتي كتب للطباعة والنشر والتوزيع، كما ذكر فيه عن مساهماته القيمة التي قام بها في تحرير مجلات الرسالة والثقافة والهلال وغيرها، هذا الكتاب هو قصة رائعة جميلة لهذا الفتى الشاب الذي شق طريقه في الحياة تحت ظروف قاسية، ومن خلال كتابة هذا الكتاب أن الأستاذ أحمد أمين واجه مشاكل وصعوبات كثيرة على الرغم من هذه المشاكل لم يتخلف ولم يعد إلى الوراء بل لا يزال يتقدم إلى التقدم والإزدهار في الحياة كما ذكرها في هذا الكتاب قائلا " لم أتهيب شيئا من تأليف ما تهيبت من إخراج هذا الكتاب، فإن كل ما أخرجته كل غيري المعروض وأنا العارض أو غيري الموصوف وأنا العاصف، وأما هذا الكتاب فأنا العارض والمعرض والواصف والموصوف، والعين لا ترى نفسها إلا بمرآة، والشيء إذا زاد قربه صعبت رؤيته، والنفس لا ترى شخصها إلا من قول عدو أو صديق، أو بمحاولة للتجرد تم توزيعها على شخصيتين: ناظرة ومنظورة، وحاكمة ومحكومة، وما أشق ذلك وأضناه"[205].

وكذلك تحدث الأستاذ أحمد أمين عن دوره الفعال الذي قام به في الحياة العلمية والأدبية، فهو اشتغاله كونه مدرسا بالمدارس الابتدائية، ثم عميدا بمدرسة القضاء الشرعي، فقاضيا في الواحات، ومدرسا في مدرسة القضاء، ثم رئيسا للجنة التأليف والترجمة والنشر والتوزيع، فمديرا للإدارة الثقافية في الجامعة العربية المصرية، ثم بين دوره في الحياة الأدبية والثقافية وإسهامه في نشر المقالات القيمة في المجلات والصحف مثل: صحيفة السفور، ومجلة الثقافة وغيرها من المجلات الأخرى، إلى جانب نشره العديد من الكتب القيمة والبحوث العلمية والأدبية النادرة حول الإسلام والتاريخ والفلسفة والعلوم والفنون وما إلى ذلك.

كما ذكر الأستاذ في هذا الكتاب عن أهم الشخصيات الممتازة التي تركت طابعها الخاص على تكوينه الثقافي والأدبي والعلمي والفني على حد سواء، حتى كملت له شخصيته العبقرية الثقافية التي خرج بها إلى الحياة العامة ليقوم بدوره البارز في مجال الثقافة ومن هذه الشخصيات البارزة والده الكريم الذي علمه دروس الحياة وتجاربها المرة في البيت وشرح له علوم النحو والصرف والبلاغة والأدب والتاريخ وما إلى ذلك، ووضع له برنامجا ومنهجا دراسيا للقراءة والمطالعة كما يذكر عن والده وهو يقول "وضع لي أبي برنامجا أن أحضر درسا في الفقه الحنفي صباحا- وإنما اختار فقه الحنفية لأنه هو الفقه الذي يعد للقضاء، إذ يشترط في القاضي الشرعي أن يكون على مذهب الإمام أبي حنيفة- وأن أجود القرآن على شيخ ضحى، وأن أحضر درسا في النحو ظهرا، وأن أحضر درسا في العلوم التي كانت تسمى العلوم العصرية- وهي الجغرافيا والحساب- عصرا، وبهذا ينتهي اليوم..."[206].

وكذلك ذكر فيه عن الشخصيات المتميزة التي أثرت أثرا عميقا للغاية في بناء شخصيته الفذة ومن أهم

---

[205] المرجع نفسه، ص: 07

[206] المرجع نفسه، ص: 53

الشخصيات بعد شخصية أبيه الكريم هي شخصيات أربعة، شخصيتان من قبل الرجال، وشخصيتان من جانب النساء، أما الشخصيتان من قبل الرجال، فهما شخصية عبد الحكيم بن محمد، وشخصية عاطف بركات، لذلك نراه في هذا الكتاب أنه قد عبر عن حزنه العميق حينما مات عاطف بركات حتى لقد ترك في عينيه دفعة وفي قلبه حزنة يقول " وبعد قليل من وفاة أبي يموت أبي الروحي الثاني (عاطف بركات) فأحزن عليه حزنا قريبا من حزني على أبي، وأقف على قبره عند دفنه وأرثيه بكلمة أودعها قلبي، وأنظر إليه في كفنه وهم ينزلونه إلى قبره فيصفر وجهي ويسيل دمعي وأحز بأسناني على سبابتي فأكاد أقطعها، وينظر أقرباؤه إلى فيجدونني أحزن أكثر مما يحزنون، وألتاع أشد مما يلتاعون فيرثون لحالي ويشفقون مما بي، لقد تسلمني من أبي بعد أن رباني التربية الأولى فرباني التربية الثانية، وقد عاشرته نحو ثمانية عشر عاما من سنة 1907م إلى وفاة سنة 1925م منها أربعة وأنا طالب وهو ناظر وأستاذ، وعشرة وأنا مدرس وهو- أيضا ناظر وأستاذ، وأربعة وهو يشتغل بالأمور السياسية وأنا أتلقى عنه دروسها- فبعد خروجه من المدرسة على النحو الذي أشرت إليه قبل، تفرغ للسياسة وانضم إلى الوفد ونفي إلى "سيشل" ولما عاد وتولى سعد باشا الوزارة عين "عاطف" وكيلا لوزارة المعارف، وتولى أمر الوزارة كلها، وقد عرض على إذ ذاك أن أكون مفتشا في الوزارة معه فاعتذرت، ثم عرض على أن أكون أستاذا للشريعة في مدرسة الحقوق وقبلت، واتصل بناظر الحقوق واتفق معه على ذلك واختبرت دروسي ولكنه مات قبل أن يتم ذلك، فقلب لي ظهر المجن، وقطعت إجراءات التعيين وعين غيري، وانتهى كل شيء كأن لم يكن شيء"[207].

وأما الشخصيتان من النساء فالأولى هي شخصية سيدة إنجليزية عجوز كان اسمها مس وبور، والشخصية الثانية هي شخصية سيدة إنجليزية ذكرها في هذا الكتاب بكل تفصيل من التفاصيل يقول " سيدة إنجليزية في ريعان الشباب جميلة الطلعة لها عينان تبعثان في النفس معنى الصفاء والطهارة والثقة، تعيش مع زوجها الإنجليزي المدرس بالمدرسة الخديوية الثانوية عيشة أرستقراطية فخمة، مولعان بركوب الخيل والتروض عليها عصر كل يوم، يستمعان بالزواج الجديد السعيد، كنا نقضي ساعتين في الدرس مرتين في الأسبوع، ساعة تعلمني الإنجليزية وساعة أعلمها العربية واختارت لي أقرأ معها كتاب "قصص شكسبير للامب"[208].

ولا شك فيه أن هذا الكتاب يتميز من الكتب الأخرى بصفات الصدق والصراحة التامة والتواضع الخلقي الكثير، ربما نحن نرى أن بعض الكتاب لا يعترف مما ارتكب من أعمال فاحشة في حياته، لذلك لا يذكر في سيرته الذاتية، فإنه لا يزال يحاول أن يختفي من الآخرين، ولكن أمر الأستاذ أحمد أمين مختلفا قليلا، أنه لا يختفي أي شيء من الأشياء من القراء بل أنه يظهر بكل صراحة تامة، كما نرى صدقه وتواضعه وصراحته التامة هو اعترافه بأنه لم يكن بارعا خبيرا وماهرا في كتابة الترجمة والإنشاء والبلاغة في ذلك الحين عندما كان مدرسا في المدارس الابتدائية في مصر بل أنه كتب في موضع أن بعض الطلاب أفضل وأحسن منه في الكتابة الخطابة والإنشاء يقول "

[207] المرجع نفسه، ص: 150

[208] المرجع نفسه، ص: 115

نعود إلى الإسكندرية، فقد درست في مدرسة راتب باشا اللغة العربية للسنة الرابعة الابتدائية، وكان هذا فخرا كبيرا إذ من يدرس للسنة الرابعة ينظر إليه على أنه أرقى مدرس للمادة، وأحسست كفايتي في تدريس القواعد، حتى كان من غروري أني أخطئ الكتب المدرسية التي قررتها وزارة المعارف، أما في دروس الإنشاء فلم أكن بارعا، بل كان بعض التلاميذ يكتبون خيرا مما أكتب، لأني لم أتمرن على الكتابة، وكنت إذا كتبت شيئا ملت إلى السجع وإن لم ألتزمه لغلبة ما حفظته من مقامات بديع الزمان ورسائله"[209].

وكذلك تحدث الأستاذ أحمد أمين عن تواضعه الخلقي وهو يعترف بأنه كان لا يشارك في عملية السياسة، ولم يرغب فيها قط، بل سعى ما في وسعه أن يبتعد عنها كليا، لأن كان مزاجه علميا ولا يزال الانغماس في التعليم والتربية، هو يخاف من السجن والعقوبة كما يقول " ولكن لم أندفع اندفاعهم، ولم أظهر في السياسة ظهورهم، لأسباب أهمها أني- على ما يظهر- لم أتشجع شجاعتهم، فكنت أخاف السجن وأخاف العقوبة، ولعل من أهم أسباب خوفي إشفاقي على والدي وقد أصبحت ابنهما الوحيد، إذا سمعا بحبسي أو عقابي هذ ذلك من كيانهما الذي أشرف السقوط، وقد علمني أبي الإفراط في التفكير في العواقب ومن فكر في العواقب لم يتشجع، والسبب الثاني أن مزاجي علمي لا سياسي، ولهذا كنت أختلف عن زملائي السياسيين بأنهم كانوا يؤمنون بسعد باشا كل الإيمان، ويعتقدون صحة كل ما ذهب إليه واتاه، ويئولون ما يصدر عنه من خطأ ويلتمسون الحجج لتبريره"[210].

وكذلك توجد في هذا الكتاب أحاديث مطولة عن الفكاهة التي تمتاز هذه السيرة الذاتية من الأخرى، يكفي بنا الإشارة إلى أمثلة قليلة فقط لكي اتضحت صورة واضحة من هذه الصفات البارزة، ذات مرة حصل الأستاذ أحمد أمين على فرصة غالية للذهاب برفقة صديقه الحميم الدكتور عبد الرزاق السنهوري إلى البلاد الغربية للمشاركة في مؤتمر المسشرقين في بروكسل، فهناك وقعت له حادثة مفجأة طريفة حكاها لنا في كتابه يقول " حدثت لي حادثة طريفة في بروكسل، فقد ذهبت إلى حلاق لا يعرف كلمة إنجليزية وأنا لا أعرف كلمة فرنسية فكان كلما حدثني وأنا out وإذا حدثته بالإنجليزية قال لي yes بالفرنسية قلت لا أفهم ما يقول، وهو لا يفهم ما أقول حتى رأيت آخر الأمر رأسي وليس بها إلا شعر خفيف جدا قصير جدا والدنيا برد، وأنا مضطر عند دخولي قاعة المؤتمر أن أخلع قبعتي، فلا أجد بها شعرا يقاوم بردا ولا يجمل منظرا، وقصصت القصة على زميلي الدكتور طه حسين والدكتور عبد الوهاب عزام فضحكا وأغرقا في الضحك"[211].

وكذلك ذكر لنا قصة مضحكة وهي حادثة مضحكة طريقة حدثت خلال تعلمه اللغة الإنجليزية في جمهورية مصر العربية كما يحكي لنا قصته قائلا " كنت أحدثها يوماً، وقد قامت الحرب العالمية الأولى فزل لساني ونقدت الإنجليز نقدا خفيفا أمامها، فما كان منها إلا أن دمعت عينها وقالت في رقة "أتعيب قومي وأمتي"! فخجلت خجلا

[209] المرجع نفسه، ص: 68
[210] المرجع نفسه، ص: 143
[211] المرجع نفس، ص: 192

شديدا وقدرت طينتها التي يجرحها النسيم، ولم أعد بعد لمثلها واستمررت على ذلك أكثر من سنة قرأت معها هذه القصص، وعلمتها قدرا لابأس به من العربية، وكان يصعب عليها النطق بالعين فكانت تقول: إن عينكم تؤلمني، كنت أقول في نفسي مثل قولها، وكان لها نقد لطيف لما تتعلمه من العربية- نقد لا ندركه نحن لأنها لغتنا، نشأنا فيها ورضعناها مع لبن أمنا وألفناها منذ صغرنا، قالت لي مرة: إن اللغة العربية غير منطقية، ألا تراها تؤنث الشمس وهي قوية جبارة وتذكر القمر وهو لطيف وديع: فأولى أن نذكر الشمس ونؤنس القمر كما نفعل نحن في لغتنا، وقالت مرة: ألا تعجب من لغتكم تقول ثلاثة كتب، وتقول ألف كتاب، وكان الأولى ما دامت تقول ثلاثة كتب أن تقول ألف كتب، وهكذا من طرائفها الظريفة" [212].

أسلوب الكتاب الأدبي والفني:

يعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب في فن السير الذاتية في الأدب العربي الحديث، ويتميز أسلوبه بالبساطة والوضوح وعدم تكلف الزينة والزخرفة يذكر عباس محمود العقاد عن أسلوبه الرائع البديع بقوله "وإنك لتبدأ الكتاب وتنتهى منه بغير توقف لاستطراده في نسق سهل جميل يذكرك إذا جنح إلى الجد بأسلوب الغزالي في أحيائه، ويذكرك إذ تلطف بأسلوب أبي الفرج وأغانيه، ولا أذكر أني توقفت فيه إلا بعض الملاحظات التاريخية أو اللفظية التي قد يتساوي التوقف لديها والعبور بها مع النظر إلى جوهر الموضوع"[213].

ويقول الدكتور يحي إبراهيم عبد الدايم عن أسلوب الكتاب " وقد كان الأساس الذي بني عليه "أحمد أمين" ترجمته الذاتية هو رواية الحدث المتصل بحياته "رواية إخبارية " تعتمد على إثبات الحقيقة التاريخية ونقل واقع حياته الماضية نقلا يميل إلى التقرير في كثير من أقسام "حياتي" وإلى التفسير والتحليل في قليل منها- على سنتين بعد صفحات قليلة- وهو يتفق في ميله إلى التحليل مع العقاد، وإن كانت نزعة التحليل لديه أقل من تلك التي أتيحت للعقاد، صاحب القدرة العظيمة على التشريح والتشفيق دون غلبة الأسلوب التقريري عليه على النحو الذي نجده لدى "أحمد أمين"[214].

ولا شك فيه أن هذا الكتاب يتميز بأسلوبه الأخاذ الخاص، وحينما ندرسه فنرى أن ألفاظه لطيفة ظريفة سهلة ، وكلماته بديعة مختارة وتراكيبه متينة أنيقة كما نرى أسلوبه البديع الأخاذ في هذا المقتبس الذي يذكر فيه أخيه الكبير الذي كان رجلا صالحا تقيا زاهدا عمره نحو الخامس والثلاثين عاما، مع أنه أكبر من أحمد أمين في السن ولكن أباه لم يعتني به عناية خاصة كما يعتنى بأحمد أمين يقول " كان أخي الكبير في نحو الخامسة والثلاثين من عمره وكان رجلا صالحا طيب القلب مشرق الوجه في نضرة وحمرة، ولكنه كان محدود الذكاء، لم يضطرب أبي في تعليمه اضطرابه في تعليمي، ولم يتردد بين مدرسة وأزهر كما تردد في، فقد حفظ القرآن والمتون، والتحق بالأزهر

[212] المرجع نفسه، ص: 114.

[213] العقاد، عباس محمود، بين الكتب والناس، (دار نهضة للطباعة والنشر التوزيع القاهرة مصر بدون سنة الطباعة) ص: 24

[214] عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، (دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان بدون سنة الطباعة) ص: 262

واستمر فيه وفي دراسته الطويلة نحو عشرين عاما، ينتقل بين كتب الأزهر ومشايخه، حتى إذا أتم الدراسة خاف من الامتحان النهائي، فهو يقدم ثم يحجم ثم يقدم ويحجم، لا يجذبه الطموح ولا يدفعه إلى المغامرة حب المجد"[215].

أقوال العلماء والكتاب عن الكتاب "حياتي":

يعد الأستاذ أحمد أمين من أشهر الكتاب البارعين والمعروفين في جمهورية مصر العربية الذي دون سيرته الذاتية في كتاب مستقل أسماه بـ"حياتي" السيرة الذاتية، فإن هذا الكتاب يعد من أفضل الكتب في فن السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، وقد تمت طبعته الأولى في عام 1950 خلال النصف الثاني للقرن العشرين، عرض فيه الأستاذ أحمد أمين لمختلف مراحل حياته القاسية المريرة التي عاشها خلال طفولته وشبابه وكهولته في مصر مبتدءا من البيئة التي ولد فيها ونشأ، كما أنه تحدث فيه عن عصره ومصره وثقافته ومجتمعه وحضارته المروجة بين العامة والخاصة من الناس، وكذلك تحدث فيه عن قصة لطفولته وقريته وبيئته وأهله وأسرته وأصدقائه وزملائه الذين كان يلعب معهم في الشوارع والأزقة الضيقة، كما أنه ذكر فيه عن تجاربه الواسعة في الكتاب المختلفة وجامعة الأزهر وما عداها، وتحدث أيضا عن والده الكريم الذي يعد من أكبر العلماء في جمهورية مصر العربية، والذي له باع طويل في مجال العلم والأدب والفنون الأخرى، وبالجملة أنه قد تحدث في هذا الكتاب عن الصغير والكبير من حياته الشخصية بكل تفصيل من التفاصيل.

يقول محمد عبد الله محمد الزامل في وصف هذا الكتاب "يعتبر كتاب "حياتي" للمفكر الدكتور "أحمد أمين" رحمه الله من أمتع كتب السيرة الذاتية التي صدرت خلال النصف الثاني للقرن العشرين ذلك أن المرحوم أحمد أمين بما فطر عليه من حس علمي وتفكير موضوعي دقيق استطاع أن يعرض ويؤرخ لا لمسيرته العلمية والفكرية فحسب وإنما كان عرضا حرا ينشال بالحياة ويزخر بالمشاهد والصور قديما وحديثا فكان صورة ناطقة لتاريخ جيل وحقبة مهمة من حقب النهضة العربية الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وقد عرض فيه لمختلف مراحل حياته وسيرته الفكرية والعلمية مبتدئا بالبيئة التي ولد فيها ومنتقلا لدراسته وتعليمه والمناصب الوظيفة والرسمية التي تقلدها وزواجه وأسرته وأحزانه والدراسات الفكرية والعلمية التي حققها ونشرها عابرا أثناء ذلك أجواء التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمجتمع المصري مسجلا خلاله لملاحظاته العميقة والهادفة على مختلف مناحي الحياة وجوانبها، ثم مرحلة الإحالة على المعاش والمرض وما انتهى إليه من فلسفة في الحياة والأحياء، كل ذلك بأسلوب علمي مبسط مشرق خال من الحشو والتعقيد"[216].

ويقول أحد من الكتاب والعلماء الكبار من جمهورية مصر العربية إبراهيم العريس في وصف الكتاب " والحقيقة أن كتاب "حياتي" صدر في منتصف القرن العشرين تماما، وكنوع من التتويج لسلسلة كتب في نفس

---

[215] أمين، أحمد، : حياتي، (الناشر: كلمات العربية للترجمة والنشر القاهرة جمهورية مصر العربية 2011م) ص: 95.

[216] المقالات: محمد عبد الله محمد الزامل، صحيفة الجزيرة (يوم الاثنين جمادي الثانية 1422هـ) المنشورة على شبكة الانترنت http://www.al-jazirah.com/2001/20010820/cu3.htm

السياق راح يصدرها في تلك المرحلة "الليبرالية" الرائعة من التاريخ المصري الحديث، عدد من كبار مفكري مصر، من طه حسين إلى أحمد لطفي السيد ومن زكي مبارك إلى محمد حسين هيكل وغيرهم، ومع هذا فإن "حياتي" أتي متمايزا في تعامله مع حياة مؤلفه في تفاصيلها، ولا سيما العائلية منها حين أصبح لا حقا ذلك المفكر ورب العائلة، وهو ما استكمله لاحقا واحد من أبنائه حين وضع هو الآخر كتابا عن تلك الحياة العائلية منظورا إليها من داخل البيت"[217].

ولا شك فيه أن كتاب "حياتي" السيرة الذاتية خير كتاب ومرجع تاريخي للنهضة المصرية الحديثة، حيث ذكر الأستاذ أحمد أمين تجارب حياته التي مر بها في مراحل حياته العلمية والأدبية والفنية وأسفاره داخل وخارج جمهورية مصر العربية، كما ذكر فيه عن نشاطاته العلمية والأدبية التي قام بها طول حياته في مصر، كما ذكر فيه عن نشاطه العلمي الواسع الذي كان عضوا به في المجمع اللغوي المصري وفي مجلس دار الكتب ومجلس كلية الآداب ودار العلوم وما إلي ذلك كما جاءت في شؤون الشرق الأوسط في وصف هذا الكتاب

The book, "Hayati" written by Ahmad Amin, the distinguished Cairo scholar and educator, is impressive in its simplicity and sincerity""[218]

ويقول العالم الكبير والكاتب القدير أحمد حسن الزيات "حسب أحمد أمين أنه حلل الحياة العقلية للعرب والمسلمين في كتبه: فجر الإسلام وضحاه وظهره، تحليلا لم يتهيأ مثله لأحد من قبله، وستظل هذه الكتب الخالدة شاهدة على الجهد الذي لم يكل، والعقل الذي لم يضل، والبصيرة التي نفذت إلى الحق من حجب وصفيقة واهتدت إليه في مسالك متشعبة"[219].

ويقول في مكان آخر "يجمع بين حسن الفكرة وجمال الصورة، ويلائم بين رزانة المعني ورصانة اللفظ، وربما كان ذلك أظهر ما يكون في كتابه "حياتي" فإن تصويره البيت والسقاء والمحدث والكتاب والأزهر، وفي وصفه لأبوية وأخويه، وصديقيه عبد الحكيم محمد وعلي فوزي، وأستاذيه عاطف بركات ومس بور، لنماذج من البيان المطبوع الذي يشرق بنور العقل وينبض بروح العاطفة، ويزهو بألوان الفن".[220] وأورد الأديب الألمعي والكاتب الموهوب الدكتور طه حسين عن هذه السيرة الذاتية الرائعة لواحد من أهم رموز النهضة العربية الحديثة حيث يقول " إذا لم يكن أحمد أمين مثلا رائعا للجد المنتج، والنشاط الخصيب، والمثابرة التي لا تعرف كللا ولا مللا، والمقاومة التي لا تعرف ضعفا ولا فتورا، والثقة التي لا تعرف شكا ولا ترددا، فلا ينبغي للمصريين أن ينظروا مثلا رائعا من أي مواطن

---

[217] المقالات: حياتي لأحمد أمين "طريق إلى العقل والإصلاح لأبراهيم العريس" (جريدة الحياة يوم الإثنين 17 أكتوبر / تشرين الأول 2016م) المنشورة على شبكة http://www.alhayat.com/Opinion/Ibrahim-Al-Arees/17959893/«حياتي»-لأحمد-أمين--طريق-إلى-العقل-والإصلاح

[218] أمين، أحمد، : **حياتي**، (الناشر: كلمات العربية للترجمة والنشر القاهرة جمهورية مصر العربية 2011م)

ص: 247

[220] https://www.goodreads.com/book/show/6007326

آخر"[221].

خلاصة الكلام:

يعتبر هذا الكتاب من أفضل وأحسن الكتب التي ألفت وصنفت في مجال السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، سرد المفكر والباحث الإسلامي الفذ أحمد أمين فيه سردا مفصلا عن سيرته الذاتية ما مر به من تجربة علمية وأدبية وخبرات فائقة في حياته بدء من مرحلة الطفولة والصبا التي قضاها في المدارس المختلفة في جمهورية مصر العربية وماعداها في البلاد الأخرى، وكذلك ذكر دراسته وتعليمه والمناصب والوظائف التي تقلدها من خلال حياته الشخصية، كما ذكر والده الكريم الذي تلقى منه دروس الحياة وتجاربها المرة، وأمه تلقى منها تجربة الحياة القاسية، وأخيه الكبير والصغير، والفتاة الإنجليزية التي تلقى منها اللغة الإنجليزية وعلمها اللغة العربية، وكذلك تحدث الأستاذ أحمد أمين فيه أحوال أسرته وأحزانه وآلامه ودراسته العلمية والفكرية التي حققها ونشرها عابرا أثناء ذلك أجواء التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمجتمعات المصرية العربية، فإن هذا الكتاب يعد وثيقة تاريخية ذات أهمية كبيرة من شاهد عيان عايش تلك الفترة من الزمان ورأي بعينيه كل ما مر به من أحوال سيرته الذاتية وسجل كل ذلك في أسلوب علمي أدبي مبسط مشرق خال من أي نوع من الحشو والتعقيد، فيمكننا القول إن هذا الكتاب خير كتاب ومرجع تاريخي للنهضة العربية المصرية الحديثة على العموم وللحركات السياسية والاجتماعية والثقافية على الخصوص، وهذه هي لمحات ولحظات لا نستطيع أن نطلع عليها بدون القراءة والمطالعة لهذا الكتاب القيم.

المصادر والمراجع:

1. أمين، أحمد، : حياتي، كلمات العربية للترجمة والنشر القاهرة جمهورية مصر العربية 2011م.
2. العقاد، عباس محمود، : بين الكتاب والناس دار نهضة للطباعة والنشر القاهرة مصر بدون سنة الطباعة.
3. عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم، : الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان
4. صحيفة الجزيرة يوم الاثنين جمادي الثانية 1422هـ مقالة محمد عبد الله محمد الزامل المنشورة على شبكة الانترنت http://www.al-jazirah.com/2001/20010820/cu3.htm
5. تاريخ العربية وآدابها محمد الفاروقي وآخرون ص: 165
6. https://ar.wikipedia.org/wiki/أحمد_أمين بتاريخ 10مارس عام 2018م.
7. المقالات: حياتي لأحمد أمين: طريق إلى العقل والإصلاح لأبراهيم العريس المنشورة في جريدة الحياة يوم الإثنين 17 أكتوبر / تشرين الأول 2016م الموجودة على شبكة http://www.alhayat.com/Opinion/Ibrahim-Al-Arees/17959893/«حياتي»-لأحمد-أمين--طريق-إلى-العقل-والإصلاح.

[221] المرجع نفسه.